

مكتبتنا العربية

الموسوعة الصغيرة
٨٣

الإنسان في أدب

وادي الرافدين

د. يوسف مبرور

الموسوعة الصغيرة

سلسلة ثقافية نصف شهرية نتناول
مختلف العلوم والفنون والآداب
تصدرها دار المجاحظ للنشر

رئيس التحرير: موسى كريدي

أدب الحرب

ياسين طه حافظ

دار الحرية للطباعة - بغداد

سعر ٥٠ فلسا

الانسان في أدب وادي الرافدين

د . يوسف حبي



منشورات دار الجاحظ

بغداد

١٩٨٠

(المؤلف في سطور)

د . يوسف حبي

- * ولد في الموصل عام ١٩٣٨ . واكمل دراسته في روما .
- * حصل على شهادات عالية في الفلسفة واللاهوت والقانون
- * وسائل الاعلام وعلم الاجتماع . وبعد الطروحة في الحضارة
- العربية لنيل دكتوراه دولة من جامعة السوربون .
- * يكتب منذ الستينات في مجلات عربية وأجنبية . ويتنقل عدة
- لغات .
- * عضو الجمع العلمي العراقي ورئيس تحرير مجلة (بين
- النهرين) .

مؤلفاته :

- (١) حنين بن اسحق (٧) تاريخ الجلبا برعينا (٣) الآثار
- الطبية لارسطو (الطريق) (٤) كتاب المولودين (الطريق) (٥)
- كتاس الموصل (لحم الطبع) (٦) من الاماكن (لحم الطبع) ٢

فجر فكر اصيل

الانسان بداية ونهاية ، اصل وغاية ، ركيزة
وذروة ، وهو بذلك فرد ومجموع ، بل عالم
وكون . يوغل في غابر الزمن السحيق بعيدا ،
ويندفع نحو آفاق المستقبل خالدا .

بوسعنا ان نتخلى عن جميع الحقائق ما خلا
حقيقة الانسان . وفي امكاننا التكرار لأي واقع
كان ما عدا واقع الانسان . وفي مقدورنا اهمال
اصل ومصير كل الكائنات الا اصل الانسان
ومصيره ، فهي حقيقتنا ، وهو واقعنا ، واصلنا
والمصير .

لنا سعى الانسان ، منذ القدم ، وعبر
محاولات شتى ، الى قراءة المعطيات المتوفرة ،
والنوص في الاعناق الاكيدة ، واستلهم المؤشرات

المتاحة، بغية الوصول الى الكشف عن سر الاسرار.
وما ألوف المجلدات التي وضعها حكماء وفلاسفة
وعلماء عن الانسان سوى قس من شمس وشاهد
من الشواهد على أهمية الموضوع وواقعيته ، في
كل الازمنة والبلدان والحضارات ...

وليس بحثنا اليوم عليا لكي نرجع الى
عهود ما قبل التاريخ، ونقف على أول آثار الانسان
القديم . انما البحث فكري حضاري . لذلك وجب
ان نعتد النصوص المكتوبة والافكار المسجلة ،
ونستحي شيئا من المعالم الآثارية والفنية
والعمرانية ، لتكوين فكرة عن الانسان أخذ بها
المرء عن ذاته ومجتمعه في فترة من الزمن .
وتركيزنا في هذه المجالة على (مفهوم الانسان في
أدب وادي الرافدين) ، لا سيما في الفترة الاولى
من التاريخ الحضاري لسكان وادي الرافدين .

قد كان يظن الى سنوات خلت ، ان بواكير

الفكر والعلم في تاريخ البشرية وفدت الينا من
حوض وادي النيل ، أو أن النضوج الفكري
لم يتخلص من مرحلتها الطفولة والمراهقة الا على
يد الاغريق وحكمائهم . غير أن التنقيبات التي
بدأت منذ الثلث الاخير من القرن الماضي ، ولا
تزال مستمرة حتى اليوم ، صححت هذا الرأي
الخطيء ، وأرجعت بدايات الفكر والعلم ، بشكل
عيق ومكتمل ، الى بلاد وادي الرافدين ، مهد
الحضارة البشرية .

ولا تزال الدراسات نادرة حول حضارة
وادي الرافدين القديمة ، لا سيما الفكرية منها .
لذا كان البحث الذي اخترناه شيقا وصعبا .
امور ثلاثة نود التنويه اليها ، مستبقين
الحديث ، وهي :

١ - كلما أمعنا في دراسة ما لدينا من
نصوص وشواهد ادبية سجلها قدامى العراقيين ،

فكر انسان وادي الرافدين قديما ، فالمعانيب كثيرة .
 انما القصد القضاء على أسطورة شائعة تقول ان
 الفكر بمعناه الحضري العتيق ، أي الفلسفة ، لم
 يبدأ الا مع فلاسفة الاغريق ، وان كل ما سواه
 تخيلات صيائية وتصورات شعوب بدائية متخلفة
 وقد لا تتسع المجلدات الضخمة لايفضاح هذا
 كله . انما ابراز دور بلاد وادي الرافدين
 الحضاري ضرورة لسببين :

أولهما ، الاعتراف بالاسبقية لتلك العقول
 الثاقبة المفتحة التي أبدعت منذ اكثر من خسة
 آلاف سنة ، فكرا وارقيا لا مثل لها في تاريخ
 البلدان الاخرى وحضاراتها ،

وثانيهما ، التأكيد على هذه الاصاله التي
 لحضارة وادي الرافدين القديمة ، ومحاولة فتحها
 الحياة بخلق الصلة الحضارية قوية بيننا وبين
 الماضي ، لان التراث ركيزة البناء والتقدم .

تبيين لنا ، على قلة هذه البيانات ، عمق فكرهم ،
 واصلته ، واتزانه ، وانسانيته .

٢ - يجب تصحيح ما هو شائع في معظم
 الدراسات والموسوعات على أن المصريين اول من
 عرفوا التمدن والحضارة ، وعلى ان اليونان اول
 من فتحوا العالم بفكرهم وعلمهم ، واستبدال
 هذا الرأي برأي جديد صحيح مفاده ان قدامى
 العراقيين ، والسومريين بخاصة ، هم الذين فعلوا
 ذلك .

٣ - التمييز بوضوح بين الكمية والكيفية ،
 وتقييم الرمز على أنه حقيقة خلاقة ، يدفعنا ذلك
 الى اكتشاف العمق والابداع في تعبير منكري
 وادي الرافدين . اما التشويه والازدواج في مفهوم
 الانسان فتختلف ناجم عن أقوام تلتهم ولم تسكن
 من استكمال المسيرة النيرة بسلام .

ولا يحسن أحد انا بهذا تركي كل ماجاء في

اعتبار الانسان قطعة من قطع مواد البنيان الارضي المادي ، والى تغييب الانسان في عالم فوقى هو عالم الالهة والاجرام السماوية .

وسط مفاهيم كهذه ، عرقلت مسيرة الانسان الحضارية وخلقت تصورات وهمية فاسدة وعقدا نفسية شوهت شخصيته ، يحق لنا بكل اعتزاز ان نقيم وزنا لخصوصية فكر من سبقنا بقرون عديدة في هذه البلاد مهد الحضارات الانسانية العريقة . وبوسعنا تحديد مفهوم الانسان في ادب وادي الرافدين بنظرة متزنة ، كونية وكلية .

وتقصد بالنظرة الكونية عدم فصل الانسان عن الكون ، من جهة ، واعتباره قطعة منه لا غير ، من الجهة الاخرى . لان الصحيح هو تمييز الانسان عن « الشيء » . وهذا ما اجتهد فلاسفة كثيرون ، فيما بعد ، في تحديده ، فاختق بعضهم ،

نظرة انسانية متزنة

تجلى خصوصية فكر حضارة وادي الرافدين قديما بنظرة انسانية متزنة .

وتكبر في أعيننا هذه الخصوصية حين نستوعب الاشكال العديدة والمفاهيم الرمزية المتنوعة التي بها عبر الناس عن انفسهم ، نظريا واجتماعيا ، ثم علميا ، عبر تاريخ البشرية المديد . وتجاوبا مع العقلية الحضارية والثقافية الخاصة بكل فرد ، وكل شعب ، وكل فترة زمنية . والتاريخ مشحون بشواهد وامثلة فيها الكثير من التطرف :

فن الأخذ بانضمام وازدواجية داخل الانسان نفسه : فهو روح ومادة ، ونفس وجسد ، الى

تجزئة كانت وبالا على البشرية جماء ، في معظم
العصور ، وعلى كل صعيد . لذا كان لا بد من
العودة الى اصالة النظرة الكلية .

وتهمم بالنظرة الكلية عدم تجزئة الانسان
الى روح ومادة ، ونفس وجسد ، وفكر وعمل .
كما تهمم بها عدم فصل الدين عن الدنيا ، والحياة
الروحية عن الحياة الاجتماعية ، والمثل الاخلاقية
عن الممارسات اليومية ، وحياة الدنيا عن حياة
الآخرة . ولئن غدت هذه التصريحات جليية
ومقبولة في ايماننا ، يجب القول انها لم تكن بهذا
الوضوح حتى بدايات الفكر المعاصر ، ولا زال
البعض يتنكرون لها متمسكين بازدواجية لها اكثر
من مردود سلبي على فكر الانسان وممارساته
وتطلعاته .

حديثا قال تيار ده شاردن انه فهم اخيرا بان

ونجح غيرهم . وتكمن الصعوبة في كيفية التوفيق
بين ضرورة تمييز الانسان عن الاشياء ، ووجوب
ربطه بالكون بعلاقة كيانية صلبة .

فالفلاسفة اليونان الذين سبقتهم سقراط
وافلاطون وارسطو اعتبروا الانسان قطعة من
الكون ، وذلك بارجاعه كليا الى الماء او الهواء او
النار ... دونما تفريق بين اصول واصول ،
وبسبب الخلط الفظيع بين البحث العلمي والفكري
... ولم يقيض لفلاسفة من العصور المتأخرة
ايضا ان يتجنبوا هذه المزالق ، فتراهم للتخلص
من « مثالية » الوجود الانساني يقعون في حبال
« محدودية » مادية ضيقة . وان كثيرا من
المفكرين ، لتخليص المفهوم الانساني من نظرية
مادية ضيقة ، اعتبروا الانسان قبا من نور
الشس او نقعة من اله ... ولاصطدامهم بواقع
الانسان المادي والجسدي العاطفي ، اختلفوا

نحن لا نطمح ان تكون نظرة انسان وادي
الرافدين ، منذ نحو ستة آلاف سنة ، عيقة
وكونية كنظرة هذا العالم الفيلسوف ، لكننا
نستبق الامر - فنقول انها تشبهها الى حد ما ،
وفي وجوه عدة ، لانها نظرة مفتحة على الكون ،
لا منغلقة ، تشد المرء الى المادة ، من دون ما تجزئة
وازدواجية ، وتحلق به حتى اسى ما في الكون
من وجود .

الانسان كالذرة « لا يقيم » الا في جزئه الذي
يشده الى الكون » ، وعندما فهم ذلك شعر بسوجة
من الظفر تحرر نفسه ، لانه « تجديد عميق حدث
فيه بنوع انه صار غير ممكن له ، الان ، ان يكون
انسانا الا على مستوى آخر ... لان المادة ، وقد
أسفرت عن اضطرابها وتعددها ، كشفت له عن
وحدتها المجيدة ، فاصبح الان خواء بينه وبين
رفاته لانها انتزعت قلبها الى الابد من كل ما هو
محلي ، وفردى ، وجزئي ، وغدت منذئذ له ،
وحدها ، وفي كليتها ، أباء ، وأمه ، وعائلته ،
وجنسه ، وجهه الوحيد والمحرق . ولا احد في
العالم ليتكن من شيء ضد هذا . لقد اشاح
بميينه بحزم عن كل ما هو زائل ، واستسلم في
ايمان فائض الى النخلة التي كانت تجتذب
الكون » .

أصل الإنسان إلى الطبيعة ، وبالضبط ، إلى
الطين . وقد اقتبست التوراة هذه الفكرة فاثبتتها
في سفر التكوين (الفصل الثاني) . كما ثمة
إشارة في أسطورة سومرية إلى أن المرأة أخذت
من ضلع الرجل ، وهذه أيضا ترددها التوراة
فيما بعد .

أما الغاية من خلق الإنسان فالقيام بخدمة
الالهة وتحمل مشاق العمل بدلا عنهم للحصول
على ما يضمن العيش من مأكول ومشرب وملبس
ومسكن .

تقول الأسطورة البابلية :

« حدث (مردوخ) (آيا) قائلا :

اني خالق دما

اني خالق عظما

منها ساخلق الانسان

ساخلق الانسان ليعلم الالهة

أصل الإنسان والكون

إن النظرة الثنائية التي تجزئ الإنسان إلى
مادة وروح ، ونفس وجسد ، كما نظرتها الفكر
الآغريقي ، هي غير معروفة تماما في الفكر العراقي
الأقدم . إذ يأتي « الإنسان » في النصوص
العراقية القديمة ، لا سيما السومرية منها ، كوحدة
غير متجزئة ، مع قيام تماس كوني صميم ، بحيث
يستطاع القول إنها نظرة كلية تقرب إلى النظرة
المعاصرة .

وبخلاف الأساطير البابلية التي تجعل خلق
الإنسان من دم إله أزجج الآلهة الأخرى فالتقت
منه ، نجد الأساطير السومرية وهي الأقدم ، ترجع

تقف امام الاله (انكي) وتقول له :

« انهض يا بني من فراشك ... »

واعل ما هو حكيم

اخلق خدما للالهة ... »

ونرى (انكي) يفكر في الامر ، ويخلق

للالهة من يقوم بخدمتهم وأودهم ، ثم يخاطب امه
(نامو) :

« ان المخلوق الذي لفظت اسه قد جاء الى

الوجود ... »

امزجي لب الطين الموجود في اعلى المياه

التي لا يسر غورها

الصناع المهرة سيجعلون الطين مخترا

وانت عليك ان تخلقى له الاعضاء ... »

اماه ! قدري مصيره ... كانسان » .

يصور لنا الادب السومري ، وهو أقدم

أنك اسر الالهة

أحررها من عبوديتها » .

وتقول التوراة :

« ان الرب الاله

جبل الانسان ترابا من الارض

وتنفخ في انفه نسمة حياة

فصار الانسان نفسا حية ... »

وأخذ الرب الاله الانسان

وجعله في جنة عدن

ليفلحها ويحرسها » .

وقد جاء الكثير من سفر تثنية الاشتراع من

اسفار التوراة ما يؤكد على ان الله خلق الانسان

لكي يعبد ويخدمه ويلتزم بوصاياه ويكمل

مشيته .

اما اسطورة الخلق السومرية فتصور لنا

(البحر الاول) أو أم جميع الالهة والكائنات ،

نكتفي هنا بوصف سومري لمدينة (دلون) او
البحرين :

« دلون هي الموطن الطاهر

الارض (دلون) هي المحل النظيف

الارض (دلون) هي الارض المشرقة

هو ذلك الذي اضطجع وحده في (دلون)

المحل الذي اضطجع فيه (انكي) مع زوجته

ان ذلك المحل نظيف ، انه مشرق

في (دلون) لا ينشق الغراب الاسود

والحدأة لا تصرخ صراخ الحدأة

والاسد لا يفتك

والذئب لا يفترس الحمل

والكلب قاتل الجداء غير معروف هناك

وذكر الخنزير الذي يفترس الفلة غير معروف

هناك

والطير في الاعالي لا (يفسد) فراخه

من الرواية البابلية في خلق الانسان بالف عام .
ومن الرواية العبرية باكثر من التي سنة ، السماء
والارض متحدتين في الاصل اتحادا وثيقا متاسكا
فان (البحر الاول) او (العمر العظيم) او الاله
(نامو) في اصل السماء والارض . والكون هو
السماء والارض معا ، بهيئة جبل قاعدته في اعماق
الارض (العالم السفلي) ، ورأسه في اعالي
السماء (الاعلى العظيم) . السماء في حوزة الاله
(آن) ، وكل شيء فيها خالد وقيس ومستير ،
يبنا في العالم السفلي تراب وظلام ولا عودة .

هذا ما يعيد الى الازهان الصور والرموز
والاوصاف التي استخدمتها الكتب الساوية في
وصف السماوات والارض والعوالم : كما تذكرنا
بما تنفى به الشعراء شرقا وغربا في الفردوس
والجحيم ، وما ألتهم المفكرون في المدينة الفاضلة .

انليل وانكي اله الماشية (لاهار) واله الفلة (اشنان)
الى الارض ، فيتحقق الخير وتزدهر الحضارة في
الوطن الكبير .

لن نقوم بالعملية التي قام بها الفيلسوف
الالماني فويرباخ حين حذف كلمة (الله) اتى
صادفها في مؤلفات سابقه هيجل ، متبدلا اياها بـ
(الانسان) بكل بساطة ، فكانت بداية المادية
الجذلية الملحدة . لكننا سنجري تعديلا بسيطاً على
نظرية النشوء السومرية - البابلية ، فنحذف تعدد
الالهة ونب كل عنصر كوني او مبدأ حضاري
الى اله من الالهة ، ونستبدل ذلك بفكرة الخلق
وعنصري القوة والمادة الكونيتين ، فنكون حيال
فكر عتيق وواقعية ، بل انا سنحصل على أسس
علمية جيدة، ويمكننا عندئذ اعتبار حصيلة هذا كله
نظرية فلسفية يستطيع الفكر المعاصر ان يقرها
ويستفيد منها .

والارمد لا يقول انني ارمد
ومن به صداع لا يشكو من الصداع
وامراة (دلون) المعجوز لا تشكو من
الشيخوخة

ورجل (دلون) الشيخ لا يتبرم من كبر
الن ...
والنشد لا يتحب

وفي اطراف المدينة لا ينطق بالراء » .

يتم اتصال السماء عن الارض وولادة
الارض - حسب الاساطير السومرية - من
تزاوج اله السماء (آن) بالهة الارض (انكي) ،
وولادة اله الهواء (انليل) . ويلد انليل من اله
القر (ننا) وسائر الكواكب الاخرى ، فيكون
الفياء (الاله شش) . كما انه سيخلق (اليوم
الطيب) ، وسياتي بالخصب والرفاهية (الهيكال)
الى الارض . ويلد اله الماء اله الزرع ، بينما يرسل

وتتجلى انسانية النظرة الكونية لحضارة
وادي الرافدين من نص قصيدة مطلعها :

« بعد ان ابتعدت السماء عن الارض

بعد ان انفصلت الارض عن السماء

بعد ان عيّن اسم الانسان » ...

وفهم منها - كما من خلق الانسان بلفظ
اسمه كما جاء آثما - ان لتسمية الانسان علاقة
صية بانفصال الارض عن السماء . والانفصال
هنا ليس بمعنى الفصل ، بل بمعنى الولادة ،
والولادة خلق ، والخلق تحديد الشخصية والهوية .
فاسم الانسان شخصه وهويته ، وارتباط شخصية
الانسان بشيء الارض يدل على قيام علاقة كونية
بين الانسان والارض والكون ، حتى ليكننا
القول ان الارض ام الانسان وليدة له ، وان
الانسان وليدها وصانها .

الانسان والعمران

ان دور الانسان بالنسبة للكون ، في أدب
وادي الرافدين ، هو تطوير الكون بالعمل . وقد
اقتبس كاتب سفر التكوين في التوراة هذه الانكار
عندما قال :

« فخلق الله الانسان على صورته

على صورة الله خلقه

ذكرا وانثى خلقهم

وباركهم الله وقال لهم :

انموا واكثروا واملاؤا الارض واخضعوها

وتسلطوا على سمك البحر وطيير السماء

وجميع الحيوان الداب على الارض

وقال الله :

طيور السماء ، هو الذي مكنها من بناء
اعشاشها في الارض الواسعة
أسماك البحر ، هو الذي مكنها من ان تضع
بيضها في الاهوار
في بتان النخيل ومزرعة العنب ، هو الذي
جعل العسل والشراب وفيرا
والاشجار حيثما غرست ، هو الذي جعلها
تحمل الثمر
والغلة ومحاصيل النبات ، هو الذي جعلها
تنمو
مثل (اشنان) الهة الغلة ، العذراء الرحيمة ،
هو الذي جعلها تنمو
(ايميش) خلق الاشجار والحقول
وهو الذي اكثر من الاصطبلات وزرائب
الغنم

ها قد اعطيتكم كل عشب يزر بزرا ...
يكون لكم طعاما » .

لن نقالي اذا قلنا ان الفكر العراقي القديم
يقيم وزنا للانسان اكبر مما نلقاه في التوراة .
ولناخذ مثلا اسطورة الاخوين (ايميش وايتين)
ايضا لذلك . من المؤسف انه لم يبق من
الثلاثائة بيت سوى النصف ، ومع ذلك تفهم بان
هذين الكائنين ، وهما انسانان ، يحققان الرخاء
على وجه الارض ، لانتا تقرأ :

« (ايتين) هو الذي جعل الشاة تلد الحمل
والمرأة تلد الجدي

هو الذي سب وفره البقر والمعجول
وهو الذي زاد في تاج السن واللبن
في السهل ، هو الذي ادخل المرح الى قلب
المعزاة الوحشية والخروف والحمار

العالم والكون ، وينشئ المدن المتحضرة ، ويبعث
المتعلمين في صفوف الآلهة أنفسهم .

لنتمع الى هذا النص :
« لم يعرف (الانوناكي) شيئا من أكل الخبز
ولم يعرفوا شيئا عن ارتداء الثياب
لقد اكلوا النباتات بأفواههم كما تفعل
الخراف

وشربوا الماء من البرك »
وهنا ما يدفع الى الساء الى خلق اله
للماشية وآخر للفلة ، وبحكمة الانسان تكثر
المزارع والمواشي ، فيتحقق الخير في الارض .

ومعلوم بان الحضارات اعتسدت الري
والزراعة اساسا . وان تحول الانسان القديم الى
الزراعة سبق تدجين الحيوان ، ويأتي التخصيم
متأخرا . وقد يظن البعض ان اقتصار الجهود
على الزراعة واغفال الصناعة من علامات التخلف ،

في المزارع ، هو الذي أنتج الوفرة ...

الفلة الوفيرة ، هو الذي ملا بها البيوت

هو الذي وضع في الاهراء اكواما عالية » .

وعلاوة على التاكيد على عمل الانسان

وابداعه ، نرى النص يجعل منه شيئا بالآلهة .

ولدى تكلمتنا للاسطورة يتضح لنا بان (الاله)

هو في الاصل ، كخالق ووهاب للحكمة ، وان

الانسان هو باني العالم . اذ بعد حدوث الخصام

بين الاخوين ، نسمع شكوى (ايتين) :

« ايها الاب (اثليل)

لقد منحني الحكمة، وجلبت انا الماء والوفرة

انا الذي جعلت المزارع واحدة جنب اخرى

وانا الذي كدست الاهراء ... »

ويسفي الفكر المراقبي القديم الى ابعد من

ذلك ، فنلقى التاكيد على ان الانسان بعمله يطوّر

كثيرة في العراق القديم . لذا وجب الاعتراف
للسومريين بازدهار حضاري عمراني يرقى عمره
الى حوالي ستة آلاف عام . وقد كان لهؤلاء
الاسلاف وعي بتمدنهم وقيمتهم الحضارية ، تشهد
بذلك قصيدة في مدح سومر :

« يا سومر ! ايها البلد العظيم

يا اعظم بلد في العالم !

لقد غمرتك الاضواء المستديرة

والناس من مشرق الشمس الى مغربها هم

طوع شرائعك المقدسة

ان شرائعك سامية لا يمكن ادراكها

وقلبك عيق لا يمكن سبر اغواره

... كالسماء لا يمكن بلوغها !

الملك الذي تلده يزّين نفسه بالحلى الدائمة

الرب الذي تلده يضع التاج على الرأس

ربك هو رب معظم ، مع (آن) يجلس في

وينسى القائلون ذلك ان ظهور الزراعة الصناعية
بحد ذاته يعد اسهاما مهما في تقدم البشرية . لان
الانسان القديم - كما يقول المؤرخ تونيني
والدكتور احمد سوسة - حين تمكن من رعاية
بذور الطبيعة الوحشية وتأمينها لغرض اعادة
زراعتها وتكثيرها ، دفعه ذلك الى اختراع طرق
اروائها بنقل المياه اليها عبر القنوات والسدود .
وحين كثرت الغلال تعلم فن تخزينها ، وأخذ بعد
ذلك يتاجر بالفائض منها . وهكذا انتقل الانسان
من حياة البداوة الى العمران .

فن الفخار والالحاح على نظام الرقيق لدى
قدامى السومريين ، وازدهارهم بظهور البداوة
المتخلقة كجتماع بدائي ، وعدم تقييم ايجابيّة
حياتهم المتطورة في فترة زمنية قديمة جدا . وقد
اعطتنا الحفريات الاخيرة نباذج لا بأس بها من
ادوات وأوان ومهنوعات تدل على وجود حرف

(انكي) ملك الماء الذي لا يبر غوره ،
وقدر مصيرها

ايتها المدينة التي ازداد طعامها
وغسلت بالوفير من المياه ، ووقمت كالثور
الرائخ

يا دار الرخاء المقدسة على وجه الارض
ايتها المتضرعة ، انك خضراء كأنجيل !
انها الغابة (هاشور) الوارفة الظل ...
هو الذي قدر مصيرك على احسن وجه
(انليل) الجبل العظيم ، هو الذي لفظ
اسمك المقدس

ايتها المدينة التي قدر مصيرها (انكي)
ايتها البقعة المقدسة ، يا اور
لتسخي برأسك نحو السماء ! »

وتكشف لنا قصيدة الفأس عن قيمة العمل
لدى السومريين ودوره الاساس في العمران

المكان المقدس في السماء

الملك هو الجبل العظيم ، هو الاب (انليل)

وهو مثل ... اب البلدان جميعها

(الانوناكي) الالهة العظام

في وسطك اتخذوا محل سكنهم

في بيتانك الكبير ، يأكلون طعامهم

ايه يا دار سومر اعى ان تكثر اصطبلاتك

عى ان تكثر ابقارك

عى ان تزداد زرائبك

عى ان تكثر اغنامك بحيث لا يمكن ان تعد

ولا تحصى ...

عى ان تقدر (الانوكاكي) المصائر في

وسطك ! »

وهذه قصيدة اخرى في وصف (اور) :

« لقد جاء الى (اور)

تولى برعايته فصل الارض عن السماء
من اجل ان تنمو الكائنات التي خلقت
في تماسك السماء والارض ...
هو الذي جاء بالفأس الى الوجود ، وخلق
اليوم

هو الذي خلق العمل ، وتدرّ المصير
ان فأسه من الذهب ورأسها من حجر
اللازورد

فأس يته ... من القضة والذهب ...
الرب الذي سقى الناس وتدرّ مصيرها ..
وضعها كهدية في أرضهم (الناس)
ورتلوا الصلوات مع (ائليل) ...
الفأس والسلة تبني المدن
الدار الثابتة الاركان بنتها الفأس
الدار الثابتة الاركان انشأتها الفأس

الحضاري . ونحن لو قارنا بين تقييم انسان وادي
الرافدين للعمل بتحقيق العمل لدى اليونان
والرومان ، في عصور متأخرة عن الزمن الذي عاشه
السومري والاكدي والبابلي والاشوري
والكلداني ، لاتفصح لنا عمق تفكير انسان وادي
الرافدين وواقعيته الانسانية . عليه بيطة تكفي
بازاحة النقاب عن المضمون الاصلي فنستوعب
معاني الرمز وقوته ، حيث الفأس هي أداة العمل ،
بل وعمل الانسان الخلاق ذاته : تقول قصيدة
(الفأس) :

« الرب الذي يملك حقا ، هو انذي أظهر
للعيان

الرب الذي لا تبدل في احكامه
(ائليل) الذي يجلب البذور الى الارض
لزراعتها

تولى برعايته فصل السماء عن الارض

شاقة . كما ان الامر كان مقتصرا عادة على فئة
الموسرين .

لكننا لولا التدوين لفقدنا أهم منجزات
الانسان الحضارية ، الفكرية والعلمية . اما وقد
اخترع انسان وادي الرافدين الكتابة ، فان التراث
الحضاري نقل اليها في مجموعة كبيرة من الوثائق
والنصوص ، خطت جلتها على الحجر والطين
المشوي . ويجدر بنا هنا نقل تصريح العلامة
(ديورانت) : « انا نستطيع ان نقول ، ان تطور
الكتابة هو الذي كان يخلق الحضارة خلقا ، لان الكتابة
هيأت وسيلة تسجيل المعرفة ونقلها كما كانت
وسيلة لازدهار العلم وازدهار الادب واتشار
السلام والنظام بين القبائل المتنافرة ، لكنها متصلة
على تناورها ، لان استخدام لغة واحدة أخضعها
جميعا لدولة واحدة ، وبداية ظهور الكتابة هو
الحد الذي يمين التاريخ » ، وهذا ما يدفعه الى

الدار الثابتة الاركان هي التي سببت
الازدهار

الدار التي ثارت ضد الملك
الدار التي لا تستسلم للملك
الناس تجعلها تستسلم للملك ...
المجد للناس ! »

ولم تكن الحضارة لتتخذ لها ابعادا وآفاقا
رفيعة كالتى عرفتها البشرية منذ القديم وحتى
يوما ، لولا اختراع السومريين للوسيلة الكبرى
التي هي الكتابة ، وذلك في النصف الثاني من
الالف الرابعة قبل الميلاد .

فاتشرت المدارس بذلك ولعبت دورا مهما
في تطوير الثقافة ونشر الوعي بين الناس . وان
طبيعة الخط المساري وكثرة العلامات المستعملة
في كتابة الاقدمين جعلتا مهمة تعلم القراءة والكتابة

القول ايضا : «ان نشأة الكتابة السومرية وتطورها اعظم ما للسومريين من فضل على الحضارة العالمية » .

وليس لنا ان تفيض هنا في نشأة الكتابة السومرية وتطورها ، ولا في اللغة السومرية واللغة الاكدية (العربية) بفرعها البابلي والاشوري ، ولا في ادب وادي الرافدين باساليه وتشعباته ، انما يهمننا التصريح بان انسان وادي الرافدين كان في الاساس من اختراع اداة الحضارة ، كتابة وعملا ، وفي الاساس من اختراع الابجدية والعلوم ، فكان بذلك اكبر مساهم في عملية العمران البشري .

الانسان والارض

الانسان والطبيعة متلازمان ، في ادب وادي الرافدين ، تلازما وجوديا واقعيا ، في السراء والضراء .

ولعل اكبر مثال على ذلك هو ما جاء في قصة الطوفان السومرية - البابلية .

والطوفان والفيضانات من الظواهر الطبيعية المألوفة في وادي الرافدين ، ولا سيما في القسم الجنوبي من البلاد . فنجد قديم الزمان تغمر مياه دجلة والفرات وروافدهما مساحات واسعة من الاراضي كل عام ، لا سيما في الربيع . « وهذه الظاهرة الطبيعية المروعة - كما يقول الدكتور

الى ما قبل الطوفان » . وهو هذا - حسب ثلثنا - ما تناقلته التوراة والمؤرخون القدامى فيما بعده .
لنحاول ان تقرّب مقاطع النص الذي في قصة الطوفان لايضاح الفكرة :

« ولم تمض بعد الف ومئتا سنة

حتى توسعت البلاد

واصبحت البلاد تخور كالشور

فانزعج الاله من ضجيجهم

اجل ، لقد سمع انليل صخبهم

فقال مخاطبا الالهة العظام :

لقد اصبح صخب البشر شديدا عليّ

وقد حرمني ضجيجهم من النوم

فلتقطع المؤن عن الناس

لتكن ندرة في الزرع تجوعهم

وليحبس الاله ادد المطر ...

فاضل عبدالواحد علي - التي لم يستطع الانسان في وادي الرافدين من السيطرة عليها بوسائله المتوفرة آنذاك ، كانت في نظر الفرد ، مثل غيرها من الظواهر الطبيعية الاخرى ، سرا من اسرار الالهة وسلاحا من اسلحتها . ولهذا فقد احتل الطوفان حيزا مهما في معتقدات سكان وادي الرافدين وتأليفهم . ولنا ان نفترض ان واحدا من تلك الفيضانات العظيمة في بلاد سومر ، التي ربما حدثت في نهاية الالف الثالث قبل الميلاد ، بقي صدها في ذاكرة الاجيال لشدة هوله وبسبب ما الحق بالناس والبلاد من دمار ، بحيث اتخذ منه المؤرخون القدامى انفسهم نقطة « لتاريخ » الحوادث . فنحن نقرأ على سبيل المثال في احد النصوص المسارية عن كلكامش « انه جاء باخبار تعود الى ما قبل الطوفان » ، وعن آشور بانيبال قوله : « وأمعت النظر في كتابة على حجر تعو

وفي الاسفل ينبي الا يصعد الفيضان من
« المسق »

ولتعصف الرياح لتلفح وجه الارض ...
وينبي الا يعمّ الفرح بينهم »

ان غضب الالهة يجعل رحم الارض لا يحل
والحقول السوداء يضاء ، والسهل الواسع يختنق
بالملح ، فيدب الجوع في صفوف الناس ، ويمانون
من الحكمة ، وتتغير ملامحهم ، وتغطي وجوههم
غشاوة كالنبت المصفر ، ويسيرون محدوديين في
الشوارع ، وتصبح اكتافهم الواسعة منكشة ،
وسيقانهم الطويلة قصيرة ، ويدون وكانهم احياء
على حافة الموت ، اما رضى الالهة فيعمل على ايقاف
الابادة الشاملة ، ويسح للناس بالعران ، وذلك
بفضل السبل . جاء في النص :

« من اجل الالهة (نتو) فاني اريد ايقاف
ابادة مخلوقاتي

اريد ان ارى الناس وقد رجعوا الى موطن
سكنهم

ليشيدوا مدنهم ولتكون ظلالها وارفة
فعسى ان يوضع ملابوق كل المدن في اماكن
مقدسة ...

لقد أتست القوانين المقدسة والنواميس
المعظمة

وسوف تسقى الارض ،

فعسى ان يكون هناك سلام

اريد ان ارى جهودهم (الناس) المضنية ..
لقد اعطى (الاله) الاسماء الى هذه المدن
وعين عواصمها

انه لم يوقف الفيضان السنوي ،

ولكنه حفر الارض وجلب الماء في الترع

واقام كرى القنوات وجداول الري » .

وتفيدنا قصة الطوفان بشيء بالغ الاهمية ،
وهو ان الالهة كانوا مثل البشر . فالالهة « تنوء
بشقة العمل وتعاني من التعب » . كما تفيدنا بان
بطل الطوفان (زيوسدرا ، او اتراخاسيس ، او
اوتو - نبشتم) هو انسان ، رفعته الالهة الى
الحياة الازلية مثلها ، وهي دلالة واضحة على
اندماج عالم الالهة بعالم البشر . ويأتي هذا
الاندماج في معظم النصوص العراقية القديمة .
وعلاقة الحيوان ايضا بالبشر وثيقة . فنحن
نقرأ ، في ملحمة كلكامش الشهيرة ، بان الدب
والضبع والنسر والفهد والايل والسبع والمجول
والضباء وكل حيوان البرية يندب (انكيدو)
ساعة وفاته . ويأتي في المصادر الادبية القديمة بان
الحيوانات هي مخلوقة ، لكنها « تنبث من
الارض » .

وقد أوردنا سابقا ، في قصيدة تصف

(دلون) ، تعاطف الحيوان والنبات والمياه مع
الانسان ونتاجه ، بحيث تغدو المدن ذات العمران
البشري جنات حقيقية .

ولنا في اسطورة (ائليل وايتين) وولادة
(قنا) ما يؤكد اهمية انجم المدينة بنهرها
ومرفأها وبئرها مع الانسان ، شابا كان ام فتاة أم
عجوزا ، كما ثمة اكثر من ذكر لوخليفة المياه فبي
عملية التطهير والنقاء . فانا نقرأ مثلا في قصيدة
تصف مدينة (ثر) :

« انظر تماسك السماء والارض ، المدينة

انظر « الجدار الجيد » ، المدينة

انظر (ايدسالا) ، نهرها الصافي

انظر (كراكونا) مرفأها الذي ترسو عليه

السفن

انظر (بولال) بئر مائها العذب

الانسان والمجتمع

انتظمت الحياة في بداية الامر في القسم الجنوبي من وادي الرافدين . وهناك انشأ السومريون اقدم حضارات العالم طرا ، وذلك منذ الالف الرابع قبل الميلاد .

ولعل اصل السومريين من الجبال ؛ لان لباسهم كان الصوف وصناعتهم النحاس . ولما تكاثر عددهم في وادي الرافدين ، اندفعوا الى شق الجداول والترع ونقل المياه الى الاراضي الزراعية لاروائها سحبا ، واستخدموا وسائل خاصة لرفع المياه الى الاراضي المرتفعة ، فاخترعوا الدواليب لهذا الغرض ، وتتبعوا مواسم الفيضانات والاحوال الجوية وحركة الافلاك لتعين مواسم

انظر (اد تبردو) قناتها النقية

انظر (انليل) رجلها الشاب

انظر (نليل) عذراءها الفتية

انظر (تبار شكونو) امرأتها المعجوز ...

في تلك الايام ، وجهت الام النصح الى عذرائها التي ولدتها

(تبار شكونو) وجهت النصح الى (نليل) :

في النهر الصافي ، يا عذرائي

في النهر الصافي اغتسلي يا (نليل)

تسبي على ضفاف نهر (اد تبردو) ... »

عام ٢٧٢٥ ق م وشاد بطلهم سرجون عاصمة جديدة سماها (اكد) ، وأخضع شرقي الجزيرة العربية وبلاد عيلام حتى بلغ الغرب وغسل سلاحه ب مياه البحر المتوسط .

تلاهم البابليون الذين اتخذوا من بابل (بيت ايل ، او الاله) عاصمة لهم . وكان لعمورابي العظيم (١٧١٠ - ١٦٧٠ ق م) ان يوطد حكمهم ، فأرسل امبراطوريته على قواعد صلبة هي القوانين والتشريعات التي جاءت اكمل ما سبقه اليها الآخرون ، كما انه اخضع بلاد آشور .

وكان الآشوريون يهتفون انفسهم للاستيلاء على البلاد ، حتى أتيح لهم ذلك بفضل سرجون الاول سنة ١٧٧٥ ق م ، وغدت نينوى عاصمة الامبراطورية هي من اعظم امبراطوريات العالم القديم . وبنى الاشوريون عواصم اخرى ثلاثا : آشور ، نمرود ، خورسباد .

الزروع الشتوية والصيفية ، وقادهم ذلك الى اتقان عمليات المسح لتحديد الاراضي ، فانشأوا قواعد ثابتة للمقاييس والمكاييل ، وحلتهم وفرة الاتاج على المتاجرة مع المناطق القريبة والبعيدة .

اما أشهر المدن السومرية فهي : اور ، اوروك ، اوما ، لكش ، لارسا ، ماري . وقد احتفظت كل مملكة من ممالكهم ، في بادئ الامر ، باستقلالها في ظل ملك - كاهن (باتيزي) ، حتى قيض للملك (لوغال) ان يوحد المدن او الممالك الصغيرة في مملكة كبيرة واحدة عاصمتها (اوروك) . واستطاع هذا الملك ان يفاخر بانه يسيطر هوذة من « البحر الادنى » او الخليج العربي حتى « البحر الاعلى » او البحر الابيض المتوسط .

ثم تعاقبت موجات الهجرات من شبه جزيرة العرب الى بلاد ما بين النهرين ، واشتبك الوافدون بالمستوطنين ، فقطعت بلاد سومر على يد الاكديين

الاجتماعي والادبي والفني شأوا عاليا يقف اليوم
مندهشين بازاء عظمتة وشيوخه ، وكل ذلك الرقي
والابداع .

نظرة متفحصة الى زقورة اور ، واخرى الى
برج بابل ، تكشفان لنا عن عبقرية فذة تحلى بها
انسان وادي الرافدين قديما . فقد كان للزقورات
وظائف ثلاث : دينية وعسكرية وفنية ومعنى
الزقورة تل السماء او جبل الاله ، وهي عادة برج
مدرج يقام في اعلاه قدس الاقداس ، لذا فان
وظيفته الاولى دينية . كما انه برج لرصد تحركات
الجوش والقوافل ، فهي وظيفة عسكرية . وكان
المعمارون والفنانون يستثمون الفرصة لكي يظهروا
قابلياتهم الهندسية والفنية ، يريدون في ذلك رغبة
الملوك والكهنة في اخراج الزقورات بشكل جميل
مهيّب ، فيتفنن المعمارون في تشييدها باشكال
شتى ، فزقورة يصعد اليها بواسطة درج ، كما هي

ولما تكاثروا الكلدانيون في بابل تمكنوا من
السيطرة على زمام امور البلاد واستعادة مجد بابل ،
ولا سيما في عهد نبوخذنصر محرر فلسطين .

ولم تمر دولة الكلدانيين طويلا ، لان قورش
الفارسي ضمها سنة ٥٣٩ ق . م الى دولته ، فنقدت
بلاد وادي الرافدين بذلك استقلالها حتى التحرير
العربي الاسلامي .

كان السومريون من المزارعين ، ودفعتهم
الزراعة الى الاستيطان وتشيد المدن العديدة ،
فآلت بهم الحال الى تحضر رفيع . وقد فطنوا هم
انفسهم لذلك فاعتبروا الاله (انكى) اله الماء واله
الحضارة معا . وانصرف الموسرون منهم الى
التجارة ، فكان لهم مع الشعوب والبلدان الاخرى
تبادل حضاري .

وبلغ المجتمع العراقي القديم من العمران

وفي السنة الثانية بنوا هيكلًا
على جسد (ابسو) اقاموا هيكلًا
ليكن اسمها (بابل) ، قال مردوخ
لتكن مسكنًا للثالوث :
مردوخ ، وانليل ، وآيا » .

ونحن لو زرنا المتاحف التي تحتفظ بآثار
سومرية واكدية وبابلية واشورية وكلدانية
لاستحوذ علينا العجب حيال تحف نادرة من
الزخارف والالوان والاختام والتماثيل الحجرية
والمعدنية والمعالجة والخزفية ، تشهد كلها بنوع
انسان وادي الرافدين ...

لذا حق لكل كاشف العظم أن يفاخر بمدينته
(أوروك) فيقول للملاح (اور - شابي) :
« اعمل يا (اور - شابي) وتمشّي فوق
أسوار (أوروك)

الحال في زقورة اور ، واخرى عن طريق منحدرات
خارجية ، كما في برج بابل ، وغيرها عن طريق
النوعين ، كما في زقورة اريدو . وكانت الزقورة
مكونة من ثلاث طبقات او اكثر حتى السبع ، وكل
طبقة ملونة بلون . اما القاعدة فمربعة او مستطيلة
او مستديرة . وهي مشيدة عادة باللبن وحيثا
بالحجر .

نقرأ في اللوحة السادسة من ملحمة الخليقة
(في العلى عندما) :

« انت ايها الاله مردوخ حررتنا
كيف نعبر عن شكرنا لك ؟
تعالوا بنين له مسكنًا
تعالوا بنين له هيكلًا .
فرح مردوخ ، وأشرق وجهه .
في السنة الاولى صنعوا لنا

التغيرات الطارئة تشكلت بنية اجتماعية سادت
المجتمع العراقي القديم ردحا من الزمن ، وقوامها:
الملك ، وهو رأس المجتمع وصاحب السلطة،
اذ يثل الاله على الارض ، دون ان يتمتع بصفة
الالهية كما كان لفرعون مصر . الالهة هي التي
تختار الملوك بعد استشارة الكهنة ، وهذه
الاستشارة تمنح المجال للخروج على مبدأ الوراثة
فقد يتحزب الكهنة لشخص دون آخر ، ويدعون
انهم انما يتجيبون بذلك لمشئة الالهة .

يلي ذلك طبقة النبلاء (اميلو) ، وتضم :
الكهنة والكتبة والموظفين الرسميين . وقد اعتبرهم
قانون حمورابي العنصر الرئيس . تليهم طبقة
المساكين (مشكينو) ، وهم العائشون في فاقة ،
الامر الذي يضطرهم احيانا الى بيع انفسهم ،
فينحدرون هكذا الى الطبقة الثالثة ، وهي طبقة
العبيد .

وافحص قواعد أسوارها ، وانظر الى آجر
بنائها

وتيقن أليس من الآجر المفخور ؟
وهلّا وضع الحكماء السبعة أسما ؟
ان (شارا) واحدا خصص للسكن
وشارا واحدا لبساتين النخل
وشارا واحدا لسهل الري ، بالاضافة الى
حارة معبد عشتار
فتضمن (اوروك) ثلاثة شارات والحارة » .

بيد ان توسع الفتوحات من جهة ، وانتشار
الحياة المترفة من الجهة الاخرى ، ما نبأ ان اولدا
مشاكل اجتماعية جديدة ، لم يكن يعرفها العراقيون
الاوائل ، على ما نرجح ، فظهرت لديهم تيجتها
فوارق طبقة ما عثم ان الممت اليها التشرسات
القديمة وكرستها شريعة حمورابي . ووفقا لهذه

أقدم الشرائع

« يا سومر ! ايها البلد العظيم !

يا اعظم بلد في العالم !

لقد غمرتك الاضواء المستديرة

والناس من مشرق الشمس الى مغربها هم

طوع شرائعك المقدسة

ان شرائعك سامية لا يمكن ادراكها ! »

هذا ما نقرأه في قصيدة سومرية تتحدث عن

تنظيم الارض ونشوء الثقافة فيها . وفي اللوحة

الرابعة من ملحمة الخليقة (في العلى عندما) -

التي ترجع الى الالف الثاني قبل الميلاد ، فهي

اكديبة - بابلية - نقرأ بان الاله مردوخ هو المؤمر

والعبيد نتيجة طبيعية للحروب والسبي ،
فهي لم تكن قائمة اذا منذ القديم البعيد . وبطبيعة
العبيد تناط عادة الاعمال الشاقة والمهن الوضيعة .
وقد تكاثرت عدد العبيد في الفترة الاشورية اثر
الحملات والغزوات العديدة والموفقة .

يبدو ، مما سلف وما سيأتي ، دور الانسان
في المجتمع العراقي القديم ، ويحق لنا ان نعلن بان
دور عمراني بكل ما في هذه الكلمة من معان
وابعاد .

التوانين والانتظمة في حضارة ما هو من أوثق المعايير للحكم على مدى تقدم تلك الحضارة في سلم التطور الحضاري والتقدم العمراني . « فاذا كان الامر كذلك - يقول الدكتور طه باقر في تقديمه لكتاب الدكتور عامر سليمان (القانون في العراق القديم) - فسا لا مراء فيه ان يكون تدوين القوانين والانتظمة القانونية والاجتماعية في تثبيت الاعراف الاجتماعية التي تسير بموجبها المجتمعات معيارا أوثق في تقييم مستوى تلك الحضارة العمراني ، ودالة ومؤشرا حضاريا على تولد التنظيم الاجتماعي وتغلغل روح النظام والقانون والتسالك الاجتماعي . وفي هذا الضوء ينبغي للباحث ان ينظر الى ما خلفته حضارة وادي الرافدين من شرائع وقوانين معروفة بعدها مؤرخو الحضارة اولى واقدم محاولات الانسان في سيرته التاريخية الطويلة عبر العصور لتنظيم اولى

، ولا مرد لاحكامه . وهي فكرة كان يراد بها اعطاء قيمة عظمى للشرائع والقوانين ، اذ ناقصة هي وضعفة الشرائع التي تصدر عن البشر ، ورشيعة وخالدة الشرائع والقوانين السماوية . ولا نتغربين من هذا ، فلا يزال كثير من الناس ، حتى يومنا هذا ، يتصورون ذلك ، بل ويؤمنون به ايما ايمان .

اما الواقع ، فالحكام والفقهاء الذين يسنون الشرائع والقوانين والانتظمة العادلة ، مستندين بذلك الى ما يسمى بـ (الشريعة الطبيعية) او مبادئ الخلق السليم النابعة عن ضمير قويم ، فيجسدون المشيئة الربانية في تشريعاتهم . ويقوم الملوك والحكام باصدار هذه القوانين بلوائح ينسبونها الى الالهة مباشرة ، لكي تكتسب قوة وثبوتا .

يجمع مؤرخو الحضارات على ان ظهور

مجتمعات متحضرة قبل نصف وأربعة آلاف عام .
وإذا ما وجدنا اختلافا بين الباحثين حول أي من
الحضارات القديمة متى ظهرت فيها قبل غيرها
المقومات والاسس الحضارية التي يقوم عليها
كيان المجتمعات المتحضرة ، فانهم يجمعون على ان
هناك جملة عناصر حضارية اساسية ظهرت في
حضارة وادي الرافدين قبل جميع الحضارات
القديمة » .

والشرائع العراقية القديمة المعروفة تسبق
أقدم ما هو معروف من شرائع وقوانين في سائر
المجتمعات والحضارات الاخرى بعشرات القرون .
فلم تصلنا شريعة واحدة كاملة من وادي النيل
تسبق القرن الخامس قبل الميلاد ، اما القانون
اليوناني فلا يتعدى تدوينه القرن السادس قبل
الميلاد ، والقانون الروماني القديم ، او الالواح
الاثنا عشرية ، يرجع تاريخها الى القرن الخامس قبل

الميلاد ، اما مجموعة القوانين الرومانية الجينية
فتعود الى القرن السادس الميلادي .
ليس لنا قوانين مدونة معروفة من الفترة
السومرية القديمة جدا ، الا انه يحق لنا استنتاج
وجود أنظمة وشرائع منذ عصور فجر السلال ،
نظرا للنظام الذي كان سائدا في المجتمع السومري
القديم . ولم يبق حاكم لكش (اوروكاجينا) الا
باصلاحات قانونية تفترض حتما وجود تشريعات
أقدم منها .

واصلاحات (اوروكاجينا) التي تعود الى
سنة ٢٣٥٥ ق م ، هي أقدم الاصلاحات
الاجتماعية والاقتصادية المعروفة في تاريخ البشرية .
وقد تم العثور على ثلاث نسخ من نصوصها
المسارية يعود تاريخها الى زمن واصعها او بعد
ذلك بقليل ، كما عثر على نص رابع يحل تقييما
لهذه الاصلاحات .

اتنا من متابعة تاريخ لكش في اواسط الالف الثالث قبل الميلاد ، نكتشف اسباب هذه الاصلاحات ، لان دولة لكش كانت تتمتع يومذاك بازدهار حضاري كبير وقوة عسكرية جعلتها تدخل في معارك عديدة مع مجاوراتها من دويلات ، ونتيجة لتحقيقها انتصارات متتالية ، تدفقت على البلاد الغنائم والاسلاب ، وكثرت مواردها الاقتصادية باتساع اراضيها الزراعية وطاقاتها البشرية ، فعم الرخاء وارتفع مستوى المعيشة فيها . وكثيرا ما يسبب ذلك ضعفا بسبب الركود الى الكل والترف ، فيلجأ المتسلطون في المجتمع الى وسائل لايتراز اموال الناس بنية الحفاظ على مستواهم المعاشي المرتفع ، فيدب الفساد وتعم القوضى لذا نرى اوروكاجينا يقوم باصلاحاته لانه « يخاف الالهة ويحترم املاكها » .

وبعد ان تصف النصوص المشاريع العمرانية

التي قام بها اوروكاجينا ، تقدم لنا لوحة مؤلفة عن الاوضاع النائدة التي كانت تؤود دولة لكش من اقطاع جشم واعتداءات يرتكبها الاقوياء ضد الضعفاء ، فيندد بها ويضع الالهة حكاما وحراسا على الناس والاملاك ، ويخفض الضرائب ، ويخصص جرايات دائمة لاصناف من الكهنة والموظفين والحرفيين والعيان . وينص حاكم لكش على عقوبات ضد بعض الجرائم المقرفة . فاصلاحاته وثيقة تنادي صراحة باهمية حقوق الانسان ووجوب احترامها ، وتؤكد على حرية المرء ، وترفض ما يتعارض وياها . وجميل ان نعرف بان كلمة الحرية (آمارجي) ، امنية كل الشعوب في كل العصور ، قد ظهرت في تاريخ البشرية لأول مرة في هذه الوثيقة .

وفي عام ١٩٥٢ استطاع عالم المساريات كريمر التعرف على لوح مساري محفوظ في

الحكيم ، المنادي من قبل الاله ... لامارة البلاد
وتحقيق العدالة فيها ، ولماقبة الظالم ، ولرد
العداوة وكل عصيان مسلح ، ولجلب الرفاهية
للسومريين والاكديين) .

وتتناول مواد الشريعة الايجار والاستئجار ،
سواء للقوارب او للساتين والاراضي ، وتردع عن
استلاك العبيد والاموال بطرق غير شرعية ، كما
فيها عن التوقيف ، وضريبة العقار ، والارث ،
والمهر ، والاعالة ، والخطوبة والزواج ، والاذى
اللاحق للفرد بسبب ما يسلكه من حيوانات .
ويختتم الملك (لبث عشتار) شريعته بقوله :
« استنادا الى كلمة الاله (اوتو) الصادقة ، تسببت
في ان تتسك بلاد سومر واكد بالعدالة الحققة .
واستنادا الى امر الاله (انليل) ، انا (لبث عشتار)
ابن الاله انليل قد قضيت على البغضاء والعنف ..
وعملت على ابراز العدالة والصدق ، وجلبت الخير

متحف اسطنبول يحتوي على اجزاء من الشريعة ،
امدرها الملك السومري (اورنمو) ، مؤسس
سلالة اور الثالثة (٢١١١ - ٢٠٠٣ ق م) .
واستطاع هو وغيره من العلماء من تجميع بقايا
أقدم شريعة معروفة لدى الانسان . هي (شريعة
اورنمو) .

تتكون هذه الشريعة ، كما نعرفها حاليا ،
من احدى وثلاثين مادة ، تدور حول الزواج
والطلاق والقتل والعبيد والقسم والزراعة . وجاء
في مقدمتها بان الملك (اورنمو) اهتم بنظام
المقاييس والمكاييل والاوزان .

ثم كشفت الحفريات عن شريعة (لبث
عشتار) ، وهو خامس ملوك سلالة ايسن ، وقد
حكم من سنة ١٩٣٤ وحتى ١٩٢٤ ق م .
تتكون هذه الشريعة من مقدمة وخاتمة وسبع
وثلاثين مادة . جاء في المقدمة ان الملك هو (الراعي

عنها هنا وهناك ، غير ان التنقيبات لم تكشف لنا
بعد بما فيه الكفاية عن نصوصها .

اما الشريعة التي نالت شهرة واسعة جدا فهي
لاشك شريعة حمورابي . وحمورابي هو مؤسس
سلالة بابل الاولى (١٨٩٤ — ١٥٩٤ ق م) ،
وموحد البلاد بعد أن كانت قد تجزأت الى دويلات
مدن . وفي السنة الثلاثين او الاربعين من حكمه
(بحدود ١٦٨٠ — ١٦٧٠ ق م) ، اصدر حمورابي
شريعته ، وثبتها على الحجر ورقم الطين ، وأمر
بتوزيعها على المدن البابلية كلها لكي يسير الحكام
والقضاة بموجبها وتحقق بذلك العدالة بين
الناس .

وشريعة حمورابي مدونة — كما يقول
الدكتور فوزي رشيد في كتابه (الشرائع العراقية
القديمة) — على مسلة كبيرة من حجر الديوريت
الاسود ، طولها ٢٥٥ سم وقطرها ٦٠ سم ، وهي

للسومريين والاكديين . . . ونشرت الرفاه في بلاد
سومر واكد » .

وفي عام ١٩٤٥ اعطت التنقيبات التي قامت
بها مديرية الآثار العامة العراقية في تل حرميل نبا
اكتشاف لوحين دون عليهما قانون (ايشنونا) ،
وهما مکتوبان باللغة البابلية . يسبق هذا القانون
شريعة حمورابي بنصف قرن ونيف . ويتكون من
احدى وستين مادة تتناول تسعيرة المواد الغذائية ،
واجرة وسائل النقل من عربات وقوارب وحسير ،
واجرة الحصادين والاجراء ، كما تبحث في السرقة
والديون ، والمتاجرة ، والبيع والشراء ، والمهر
والزواج والطلاق ، والرضاعة وتربية الاولاد ،
والاسرى . والفدية والعبيد ، والحق الضرر
بالاخرين سواء من قبل اشخاص او حيوانات او
سقوط ابنية ، والحراسة .

وثمة تشريعات اخرى وقوانين نلتى تنويها

العدالة والحق ، ووجوب اتخاذها دليلا للحكام
والقضاة .

جاء في المقدمة :

« عندما قضى الاله (آنو) المتسامي ، ملك
(الانوناكي)

والاله (انليل) سيد السماء والارض
مقرر مصائر البلاد

قضا لمردوخ الابن البكر للاله (انكي)
ان يتبع بقضية الاله انليل على كل البشر
وجعله عظيما بين الايكيكي

وسيا بابل باسمها العظيم

وجعلها المستقيمة في العالم

وثبت له في وسطها ملكية ابدية

اسمها ثابتة كالسما والارض

انذاك اسامي (آنو وانليل) باسي

(حمورابي) الامير التقي الذي يغشى آلهته

اسطوانية الشكل ، عثر عليها في مدينة السوس
عاصمة عيلام (الاحواز) أثناء حفريات البعثة
الاثارية الفرنسية في مطلع القرن العشرين ، وهي
محفوظة اليوم في متحف اللوفر بباريس .

رتبت موادها في اربعة واربعين حقلًا ،
مكتوبة بلغة بابلية وبخط مساري . ونحت في
القسم الاعلى منها شكل بارز يمثل الاله (شمش)
وهو جالس على عرشه ، يقوم بتسليم الملك
حمورابي ادوات القياس ليتنى له اعمار البلاد
وتثبت ملكية الناس بقياسات دقيقة .

ويستهل حمورابي شريعته بمقدمة ، على
غرار شريعتي اورنمو ولبت عشتار ، لكنها منفصلة
مهمة ، يذكر فيها الملك منجزاته ومكاسبه في
جميع البلدان الخاضعة لسلطانه من الخليج العربي
وحتى اقصى الحدود الشمالية . وبعد ان يحدد
الالهة يؤكد على شرعية قوانينه وفوائدها في توطيد

مدينة بابل ، الذي يرسل النور الى بلاد سومر
واكد ، محبوب عشتار ٠٠٠ »

ومواد شريعة حورابي معروضة في ثلاثة
عشر قسما . يحتوي القسم الاول (المواد ١ - ٥)
على مواد تتعلق بالقضاء والشهود . والقسم الثاني
(٦ - ٢٥) تتعلق بمواده بالسرقة والنهب .
والثالث (٢٦ - ٤١) بشؤون الجيش . والرابع
(٤٢ - ٦٦) بشؤون الحقل والبيت والبساتين .
والخامس (٦٧ - ١٠٧) بالقروض وانقوائد
والتعامل مع التجار . والسادس (١٠٨ - ١١١)
بساقيّة الخمر . والسابع (١١٢ - ١٢٦) بالائتمان
والديون . والثامن (١٢٧ - ١٩٤) بالشؤون
العائلية أي الزواج والطلاق والارث والتبني .
والتاسع (١٩٥ - ٢١٤) بعقوبات القصاص والغرامات
المفروضة على الافراد التي يحدثها الافراد بعضهم
لبعض عند الشجار . والعاشر (٢١٥ - ٢٢٧)

لاوطد العدل في البلاد
لاقضي على الخبيث والشر
لكي لا يستعبد القوي الضعيف
ولكي يعلو العدل كالشمس فوق ذوي
الرؤوس السود
ولكي ينير البلاد
من اجل خير البشر
انا حورابي الراعي المسمى من قبل (انليل)
الذي يجعل الخير فيضا وكثرة ٠٠٠ »

ثم تعدد المقدمة انجازات حورابي « المصلح
الورع » و « الملك القدير » و « البطل » الذي
يسون (نيور) ويقدم كل شيء ويحقق رغبة
الجبيح ، مجدد الهياكل ومطهر العبادة ومثبت
أسس المدن وموسع الاراضي المزروعة ؛ انه
« الحكيم ، الاداري ، الذي بحوزته ينبوع
الحكمة ، راعي الرعية ، الملك القوي ، شمس

ثمة رسائل رسية فيها الكثير من المظاهر الحضارية ولا سيما دراسة النظم وكيفية تطبيق القواعد القانونية . وتلقى بين النصوص المراقية القديمة أيضا أحكاما وسوابق قضائية كانت تحفظ عادة في المحاكم لكي يستفيد منها الحكام . كما هنالك نصوص احلاف ومعاهدات كان يصرمها الملوك والولاة لتنظيم علاقة الدولة بغيرها من الدول . وهنالك ما يسمى بـ (المعاجم اللغوية) او تدوين بدايات النصوص القانونية والقضائية في حقلين متقابلين ، بالسومرية والاكادية ، مع شرح لمعاني المفردات والمصطلحات . ولنا نصوص عقود ومعاملات شتى تشكل كلها وثائق مهمة . هذه وغيرها تكشف لنا ايضا عن الفكر العراقي القديم اجتماعيا وحضاريا ، ولولا ضيق المجال لتناولنا شيئا منها بالتفصيل .

بالطب البشري والبيطري والواسم . والحادي عشر (٢٢٨ - ٢٤٠) بالاسفار وتعيين أجور بناء البيوت والقوارب والصناع والرعاة والمقوبات المفروضة على من يخل بالتزاماته . والثاني عشر (٢٤١ - ٢٧٧) بأجور الحيوانات والاشخاص . والاخير (٢٧٨ - ٢٨٢) بشراء العبيد وعلاقتهم باسيادهم .

فهي شريعة متكاملة حق للعراق القديم ان يفاخر بها على أنها اكل واعرق التشريعات التي عرفتها البشرية . وقد خست بنا يلي : « هذه هي قوانين العدالة التي ثبتها حورابي ، الملك الكف ، وبها مكن البلاد ان تنال القيادة الرشيدة والحكومة الحنة ... حورابي السيد ، الذي هو ائبه بالاب الحقيقي للشعب » .

وثمة مراسيم ملكية فيما من القوانين والاوامر المفيدة والمنظلة لشؤون المجتمع ، كما

دائماً مركز القيادة في المجتمع • وعلى الرغم من هذا فإن وضع المرأة في وادي الرافدين كان احسن نسبياً بكثير من وضع نظيرتها في بعض البلدان القديمة الاخرى ، مثل اليونان والرومان • اذ كانت المرأة العراقية تستع باستقلال ذاتي يقره القانون والعرف • ولم يقتصر هذا الاستقلال على طبقة معينة من النسوة ، بل كانت تستع به المرأة الحرة على مختلف المستويات الاجتماعية » •

تقدم لنا النصوص القانونية المتوفرة صبغة أبوية للمجتمع العراقي القديم ، حيث الرجل — الاب هو الرئيس الاعلى في العائلة • غير ان قاعدة الزواج بواحدة ، كزوجة شرعية ، اعطى للمرأة — الزوجة — الام حقوق التملك والبيع والشراء ، دونما تأثير كبير من قبل الاب او الزوج في معاملاتها الخاصة بحيث يمكننا القول ان مكانة المرأة في بداية العهد السومري كانت افضل مما آلت اليه

المرأة

المرأة قلب العائلة ، والعائلة ركيزة المجتمع البشري • لذا تناول هنا بشيء من التفصيل ما يخص المرأة في المجتمع العراقي القديم • ونود التنويه فوراً بان اعتمادنا النصوص القانونية وحدها يقدم لنا وجهاً قائماً عن المرأة ، كما عن المجتمع ككل ، لان القوانين انما تأتي لتنظيم ما هو بحاجة الى تنظيم ، واصلاح ما فسد من اوضاع • فلا بد من اعتماد نصوص اخرى ، ولا سيما الادبية منها •

ان « مركز المرأة في حضارة وادي الرافدين — كما تلخص الامر ثلمايان عقراوي — لم يكن في يوم ما كـمركز الرجل الذي كان يحتل

الحقل . وكانت المرأة تتقاضى عن ذلك ما يتقاضاه الرجل من اجر .

وبينا لا يمكننا اعتماد الحال التي كانت عليها الملكات والاميرات لتقديم صورة صحيحة عن وضع المرأة في العراق القديم ، لا يسعنا كذلك ان نحط من قدرها كثيرا بتوقعنا عند معايشة الرجال للاماء او تركيزنا على تقديم البنات الى المعابد كنذور للالهة .

وما خلا حق لامتلك والتصرف بمتلكاتها بكامل الحرية ، كان للمرأة ان ترفض الرجل الذي يتقدم للزواج منها . ولنا نصوص قديمة تشهد بمسارسة المرأة السومرية والاكدينية للكتابة واستخدامها اختاما خاصة بها ، وقيامها باعمال تجارية حرة ، وتظهورها في المحاكم .

اما اهم مهنة مارستها المرأة العراقية في تلك المهود السحيقة فهي مهنة الكهنوت . وانظروا

في المهود التي تلتها ، فهي ربة الحياة ، وام العائلة الكبيرة ، وشيخة القبيلة ، والكاهنة ، ومؤسسة السلالة .

وكانت العائلة السومرية والبابلية والاشورية مؤلفة من الزوج والزوجة وابنائهم الطبيعيين والمتبنين ، والنسل دعامة الزواج الناجح ، وكثرة الانسال مصدر قوة للعائلة . لذا فمن التمنيات السومرية : « عى ان يستلى بيتك بالتوائم ! » . ولم يكن المجتمع العراقي القديم ليفرق اساسا بين الذكور والاناث ، لا سيما الصغار منهم . ويفضل العراقيون القدامى الزواج المبكر ، اما كثرة النسل فعون للاهل في الزراعة والتجارة والحروب والشيخوخة .

والى جانب اعمالها المنزلية ، كانت المرأة تمارس عددا من المهن ، كالغزل والنسيج وطحن الحبوب وتربية الحيوانات ومساعدة الرجل في

خاصة ، يحتلن الصدارة في قوائم الشخصيات المهمة في المجتمع . بل كن يعتبرن بمثابة زوجات للالهة الذين يكرسن لهم خدمتهن .

وقد أسهب أكثر من باحث في التأكيد على دور المرأة - الام كمصدر للتكاثر ومعين للخصب . وأوضح العلامة كريسر العلاقة القائمة بين « المرأة » في الاساطير السومرية ، وبين « حواء » التوراة ، « أم كل حي » . ويستند العلماء في إبراز دور المرأة كام ومصدر للحياة ، سواء الى أولى المنحوتات التي كانت تبرز المرأة وجسدها وأعضائها التناسلية ، ونماذجها متوفرة في العديد من المتاحف ، كما الى النصوص المكتوبة . نذكر على سبيل المثال هذا الدعاء السومري الى الالهة (انا) المكتوب بحدود سنة ١٨٠٠ ق . م :

« ايها السيدة !

ان ثديك هما حقلك

امتدادا لمكانة المرأة في العهود التي سبقت تسجيل الانطباعات الاولى عن منزلتها ووظيفتها في المجتمع . فالمرأة - الام مصدر الحياة ، وأصل الكون يرجع الى الهة - ام . ثم تطور الامر الى الهات هن زوجات آلهة ، حتى تم تجسيد ذلك في الالهة انا - عشتار . وكنتيجة طبيعية لذلك شاعت عادة تقديم البنات لخدمة الآلهة ككاهنات وعذارى ، لا « للبغاء المقدس » كما ظن بعضهم ، وانما ككرسات للخدمة الدينية ، يكن في « حصن دير » دعي (غاغو) . هذا خاصة بالنسبة للسندورات من صف (اتو) و (ناديتو) . وكان الآباء يخصصون لبناتهم المندورات حصة من ممتلكاتهم أطلق عليها بالاكديّة (شريكو) لكي تستفيد منها الكاهنة في حياتها ، حتى تؤول بعد وفاتها الى بيت ايها .

وكانت الكاهنات ، من صف (اتو)

وادوارها العديدة ، لذا فهي ليست الهة الحب
والجنس والجمال والانوثة وحسب ، وانما تجسيد
للرأة ووظائفها كام وزوجة وحيية وشريكة .
وهنا ايضا نستعين بقصيدة جميلة كتبت في عهد
الملك البابلي (آمي - ديتانا) الذي حكم من سنة
١٦٨٣ الى ١٦٤٧ ق ٠ م ، وهي في وصف الالهة
(انا - عشتار) :

« الحد للالهة لاكثر الالهات رهبة
والاجلال ليدة الشعوب ، لاعظم الهة بين
(الايككي)
الحد لعشتار ، لاكثر الالهات رهبة
والاجلال ليدة الشعوب ، لاعظم الهة بين
(الايككي)

لقد ألبت السرور والحب
وحملت بالحيوية والسر والرهبة

وحقلك الواسع المتد ، الذي يكب النبات
وحقلك الواسع المتد ، الذي يكب الحنطة
والماء متدفقا من العلى - للمولى - والخبز
من العلى
الماء متدفقا من العلى - للمولى - والخبز
من العلى

اسكي للمولى المامور ليشرب منك »
ومها قيل في وصف الآلهة ونعتها بالقاب
وصفات تكيل لها المديح والتبجيل ، فان الالهة
(انا - عشتار) تحتل لا شك مركز العداة ،
فهي الام والزوجة ، وربة الجمال والحب . ولعل
السومريين أخذوا عن قدامى سكان وادي الرافدين
والجزيرة العربية عبادة هذه الالهة ، كما يتضح
من الادلة اللغوية والآثرية . غير ان ما يهنا هنا
هو التاكيد على ان (انا - عشتار) جمعت فيها
جل تصورات انا وادي الرافدين عن المرأة

احكامها قوية ومعظمة وجليلة
هي المنشودة من بين الالهة ، مقامها عظيم
وكلمتها محترمة وسامية بينهم
عشتار ، مقامها عظيم بين الالهة
وكلمتها محترمة وسامية بينهم
هي ملكتهم وهم باستمرار ينفذون اوامرها
كلهم يجدون امامها
ويستقبلون نورها امامها
النساء والرجال يعبدونها حق العبادة
كلمتها قوية في مجلسهم : انها العليا
عشتار تسندهم امام (آنو) ملكهم
تركن الى القتل والفتنة والحكمة
انهما يتبادلان المشورة : هي وسيدها (آنو)
وفي قاعة العرش يجلسان سوية
في القاعة المقدسة ، منزل الفرح
ياخذ الالهة اماكنهم امامها

عشتار قد ألبت السرور والحي
وحلت بالحيوية والسر والرجة
حلوة الشفتين وفي فمها الحياة
وعند ظهورها يكتمل السرور
هي الجليلة وعلى رأسها وضعت الحجب
قوامها جيل وعيناها مشرقان
الالهة - معها المتشار - وفي يدها تمسك
بصير كل شيء
وفي نظرتها تجد الفرح والمظنة والاله
الحافظ والملوك الحارس
انها تركن الى الرحمة والمودة وتهتم بها
والى جانب ذلك فانها تتصف حقاً بالرضى
وتصون (المرأة) سواء كانت أمة أم حرة أم
والدة

من ذا الذي يوازيها في المظنة ؟
عشتار ، من ذا الذي يوازيها في المظنة ؟

ومعروف هو دور (انا - عشتار) في
اسطورة نزولها الى العالم السفلي ومأساة (دموزي)
لذا كان يتردد ذكرها في مناسبات خاصة ، كما في
اقبال السومريين على الزواج ، حيث كان يرتفع
مثل هذا الدعاء من اجلهم :

« عى ان تمنحك (انا) زوجة دائمة
الاطراف تفضطج لك

وعى ان تمنحك اولادا اقوياء السواعد
وان تجد لك منزلا سعيدا ! »

و (انا) الموجودة في فكر وحياة العراقيين
التدامي كالنور والهواء ، نراها تغدو مثالا لتحرر
المرأة واطلاق حريتها في اختيار شريك الحياة ،
فيأتي في اسطورة سومرية قديمة ، بان (انا)
ترفض الراعي « الذي يملك كثيرا » لكي تزوج
« الفلاح الذي يجعل النباتات تنمو بغزارة ...
والغلة تنمو بغزارة » • ولا ترضخ للراعي الا بعد

ويصفون بامعان الى اقوالها
اما الملك الذي اختاروه وأحبوه في قلوبهم
فانه يقدم بخاء ضحاياه المقدسة
(آمي ديتانا) يقدم امامهم عجولا مسنة
وغزلانا

هي بمثابة القرايين المقدسة من يديه
والالهة مرسورة لان تطلب له من زوجها
(آنو)

حياة طويلة مستديمة
لقد منحت عشتار وصمت ان تعطي
الى (آمي ديتانا) حياة طويلة
واخضمت له باوامرها
جهات العالم تحت قدميه
وجسود الشعوب كلها
صمت على ربطهم بنيره •

انسان كلكامش

ترجع (ملحمة كلكامش) في الاساس
السومري الى مطلع الالف الثالث قبل الميلاد ،
وهي بذلك من أقدم النصوص الادبية المعروفة .
وينسبنا يأتي اطلاقنا على الادب الكنعاني او المصري
او الفارسي او الهندي ناقصا ، لان نصوص هذه
الآداب عرفت عبر العصور تحويرا واطافات
تبعدها احيانا عن اصالة الفكر فيها ، نلقى بعكسها
حضارة العراق القديم بنصوصها الاصلية لانها
مكتوبة على الواح حجرية او طينية منذ نيف
وخمسة الاف سنة .

وكما يقول الكاتبان دياكونوف وترفيموف
فان ملحمة كلكامش تثير اهتماما نظريا كبيرا ،

ان يتفق الراعي والفلاح ، وفي ذلك رمزية واضحة،
مفادها تحقق الازدهار بفضل الانسجام الحاصل
بين المزارعين ورعاة الماشية ...

يقودنا كل ذلك الى التصريح ، مرة اخرى ،
اننا لن نفهم انسان وادي الرافدين . بالشكل
الصحيح ، الا اذا اعتمدنا النصوص الادبية خاصة،
وفي مقدمتها الاساطير والملاحم والادعية ، فهي
تكشف لنا باجلى بيان فكرة الانسان العراقي
القديم عن ذاته ، وعن الكون ، معبرة عن تصورات
وطموحاته . لذا لا بد لنا من تناول ملحمة شهيرة،
بل واعظم الملاحم واقدمها طرا ، للكشف من
خلالها عن ملامح وأوجه انسانية انسان وادي
الرافدين ، ونعني بها (ملحمة كلكامش) .

وفي هذا كله تكمن ايضا قيمة الانسان ، اذ يتلسس
الجزئيات في حواسه ، ويختزن الكون بشمولية
فكره وعق ووجدانه ، فيرى ذاته خفيفا كالنفل ،
كالنر ، عاليا كالجبل ، كالسما ، عظيما كالبحر ،
كالكون ، قريبا جدا من الله ، يئسا يصطدم بشدة
بقسوة الجداد ، وتتفاعل احاسيه وافكاره في
وحدة وجودية دياكتية ، وكأنه كثرة في واحد ،
فيجد ويناضل ليجد التناغم والانجام .

ولئن بلغ تفسير هذه الظاهرة وعق عيشها ،
عبر عمر الانسان المديد ، مظاهر شتى ومحاولات
متضاربة ، بل كان واقعها مقياسا لتقدم الانسان
وتأخره ، فان البشرية لجأت الى الرمز كأداة تعبير
عن ضراعا المستديم مع ذاتها ، وعن علاقتها ببقية
الموجودات . واتخذ الرمز ، في فترات زمنية ،
مفهوما متيزا عن الواقع ، فكنا حيال ثنائية ،
كثنائية الروح والمادة ، والنفس والجسد ، والفكر

سواء لانها أقدم من كل ما هو معروف من الملاحم
الكبرى ، فهي قد كتبت قبل ملاحم هوميروس
بأكثر من ألف عام ، وسواء لانه يسكننا متابعة
تطور نص هذه الملحة عبر العصور الاكديّة
والبابلية والاشورية ، ليس عن طريق تحليل النص
وحسب ، بل وعن طريق تعدد نسخ الملحة العائدة
الى أزمنة مختلفة .

ولا بد من مقدمة ولو وجيزة في الرمز
والواقع لتفهم رمزية الملحة .

الكون سر ، والانسان سر الاسرار . مهما
بلغ المرء شأوا من النبوغ والتقدم ، فكرا وعلميا ،
يظل يتحسس في قرارة ذاته ، وفي حياة الآخرين ،
وفي الكون ، جوانب خفية وابعادا مجهولة ، تسو
به حينا الى درجات عالية من الرفعة ، وتنحط به
حينا اخر الى مستويات وضعية دنيئة ، فتبعث فيه
تناقضات كيانية عنيفة وصرعا وجوديا دائما .

استخدام الرمز كوسيلة للتعبير عن فكره
ومشاعره . وما الشعر والرسم والنحت والموسيقى
والرقص والسينما والمرح سوى مظاهر لذلك .
فللرمز بعدان ، هما : الفكر والحس . وهو
بذلك أقرب شيء الى الواقع الانساني ، حيث
البعدان الروحي والمادي ، والفكري والحسي ،
متلازمان في وحدة لا تنقسم ، هي وحدة الوجود ،
وحدة الانسان .

ولو استعرضنا رموز الانسان - كلكامش
عبر التاريخ ، لكنا حيال كشف يستدل منه تطور
في المناهيم الخاصة بالانسان ودوره في الكون .
فالالهة (نيسوتا) ، او البقرة الوحشية
المقدسة ، هي والدة كلكامش . والبقرة رمز
الخبث ، وهي الام تحتضن وليدها وترضعه من
حليها . ويأتي كلكامش ، في أختام ومنحوتات

والحواس ، والدين والدنيا . هذا ما المحنا اليه
في بداية بحثنا ، كما وفي تضاعفه .

غير ان تطور الفكر الانساني يقودنا اليوم
اكثر فاكثر الى القضاء على كل ثنائية وازدواجية ،
ويلج علينا في التاكيد على الوحدة في الانسان
والكون ، ووحدة الانسان والكون . وهذا من
امالة فكرنا العراقي القديم ، عبر عنه انسان
وادي الرافدين عبر اشكال ونصوص رمزية .

وفق مفهوم كهذا يكون للرمز ، كلما كان
او كتابة ، صورة او حركة ، تجسيدا للواقع ،
شخصا كان هذا الواقع أم فكرة ، حقيقة أم أمنية .
ويتأني ذلك من مبيين رئيسين : الاول ، طبيعة
الانسان التي لا تستوعب الوجود الا من خلال
الحسوس ، والثاني ، عدم المقدرة على سبر اغوار
كل الابعاد الكونية والانسانية . الامر الذي
يحدو بالمرء ، في أشد فترات الرقي الحضاري ، الى

السنوات ٢٨٠٠ - ٢٧٠٠ ق م ، كما نستدل على ذلك من عدة أختام وجدت في عيلام . وتحصل قيثارة (اور) الشهيرة ، وهي من حوالي سنة ٢٦٠٠ ق م ، تطعما على العاج لكلكامش وهو يصارع الثور الوحشي ، بينما نجد ختم (لوكال - نبدا) حاكم لكش يصور كلكامش انسانا وهو يصارع الاسد والوعل ، ويصور انكيديو ايضا انسانا وهو يصارع الاسد . وتأتي نصوص الملحمة المكتشفة في مكتبة آشور بانيبال لتدعم ما ذكرناه . حتى نصل الى مرحلة تصوير كلكامش كشخص سومي - أكدي ، أي بشكل انسان طبيعي ، يرتدي ثوبا قصيرا هو زي المحاربين او الصيادين ، بينما يصور انكيديو عادة بشكل حيوان عار . ثم تأخذ المواضيع الكهنوتية والرسمية بالطغيان ، بعد سنة ٢١٠٠ ق م ، على المواضيع الرمزية

قديمة ، بصورة اسد على هيئة انسان يصارع ثورا وحشيا . والثور الوحشي بهيئة انسان هو رمز (انكيديو) عدو كلكامش في بادىء الامر ثم خله الوفي . والاسد رمز للقوة ، وكذلك الثور ، لكن العراقيين القدامى يريدونها بصورة بشرية ، لانهم لا يقيسون وزنا للقوة الصماء الفاشية ، بل للقوة الانسانية العاقلة . اما الثور الوحشي فرمز الشر والجهل والعبودية والظلم ، لذا كان من واجب الانسان القضاء عليه ، فيقضي بذلك على التوحش والاستعباد .

ويظن بان اسطورة كلكامش وانكيديو تسبق شخصيتها ، هذا ان وجد في التاريخ شخص اسمه كلكامش ، واخر اسمه انكيديو . ويرجع عمر الاسطورة ، كما اسلفنا ، الى حوالي ثلاثة الاف سنة قبل الميلاد ، بينما تأخذ ملحمة كلكامش بالتبلور ، في نصها السومي القديم ، حوالي

انسان كلكامش هو «الذي رأى كل شيء» ، وهو «الذي عرف جميع الاشياء» ، او هو «الحكيم العارف بكل شيء» . انه الانسان الكامل ، اذا اعتبرنا المعرفة مبدأ الانسنة الاساس ، بل هي الحكمة - المعرفة مع التجربة الحياتية - الصفة اللازمة للانسان - كلكامش . فالحكمة لا تعني المعرفة المجردة والنظرية ، انما هي استيعاب ما في الوجود بدءا من الذات عن طريق الحس ، وهضم هذه المعارف بحيث تغدو دما يري في شرايين الشخص في المجتمع . الحكمة هي معرفة الذات ، على ضوء الماضي والتاريخ والتراث ، وهي التطلع نحو مستقبل افضل ، وذلك ببلء الواقع حضورا غنيا . وامام الحكمة لا يبقى سر دفين . لذا نرى بطل الطوفان يدرك سر الالهة ، ويعمل

* الكلمات التي بين معقفين هي نصوص (ملحمة كلكامش) كما جاءت في طبعة الامتياز طه باقر وزارة الاعلام ، بغداد ١٩٧٥ .

القديسة ، حتى تشتد من جديد قوة التعبير الرمزي ، فنلقى ، في حدود القرن الثامن قبل الميلاد ، كلكامش وانكيدو وهما مرتديان ثيابا آشورية فاخرة ، وتريجات شعرهما على الطريقة الاشورية وذيل الثور - رمز انكيدو - قد تحول الى فرشاة تتدلى من الحزام ، ومحاولته القيام بخنق الاسد كحالة المرء خنق قط ، فتفقد الاسطورة لكثير من مقوماتها التي كانت الرموز تعطيها معناها وحياتها .

ومها يكن من أمر ، فان شخصيتي كلكامش وانكيدو الاسطورتين تسترآن عبر العصور متستين بطابع فيه مسحة جليلة من البطولة والعظمة كما فيه روح انسانية عالية ، وهي سمة حضارة بلاد وادي الرافدين .

على تدبر أمره وتحقيق مصيره . ونلفى لكلامش
يجتاز الجبال المستعصية لكي يكشف عن لغز
الحياة والموت .

الحكيم هو من اختبر الحياة . انه الانسان
الواعي البالغ ، باني المدينة والمدنية ، لان السران
تجربة انسانية ناجحة تشمل كل صعيد . ولا عجب
بعد هذا كله ان يكون الحكيم هو المؤرخ الحق ،
فالتاريخ مدرسة تربي الاجيال الصاعدة .

وعلاوة على الحكمة ، يتصف انسان
كلكامش بالقوة . لقد خصته الالهة بالبطولة ، اذ
تقرأ :

« كان طوله احد عشر ذراعا ، وعرض صدره
تسعة اشبار

ثلثان منه اله ، وثلثه الاخر بشر
وهيئة جسمه مخيفة كالثور الوحشي
وفتك سلاحه لا يصدده شيء

وعلى ضربات الطبل تستيقظ رعيته «
انه مكتمل القوة والفعال ، وكلكامش
وانكيدو نظيران في البأس . انهما كوكبان او
شهابان ، وأقوى من في البلاد ، غزهما غزم الالهة .
لذا نراهما يجتازان غابة الارز الموحشة ويقتلان
العفريت (خبيبا) . وتيح لهما شجاعتها ممارسة
النزال والصعاب ، فلا يحجان ولا يتخلفان عن
اقتحام السبل المسدودة والبحار المخيفة .

وعظيم ان يتصف الانسان بالقوة والبطولة،
في زمن كان الحول الشخصي هو المعول عليه
في التغلب على الصعاب وقهر الطبيعة ، وقبل
اختراع الآلة والسلاح كما في العصور المتأخرة .

الحكمة والقوة متلازمان في انسان كلكامش
لذا فهو كامل الحسن والجمال . لقد أحسن الاله
العظيم خلقه ، حتى ان الالهة بكته عندما أباد

« تعال يا كلكامش وكن عريسي الذي اخترت
امنحني ثمرتك أتمتع بها
ستكون انت زوجي واكون زوجك »

وتأتي عملية الولادة بتصوير بديع . فان
ارورو عندما تريد خلق غريم كلكامش «تصورت
في لها صورة لأنو ، وغسلت ارورو يديها ،
واخذت قبضة من طين ، ورمتها في انبرية ، وفي
البرية خلقت (انكيدو) الصنديد ، نسل (ننورتا)
القوي » .

ووظيفة المرأة ، في ملحمة كلكامش ، ليست
الولادة والخصوبة والتكاثر بالدرجة الاولى ، بل
مشاركة الرجل في الحياة . ولها دور كبير في
صيرورة الانسان الى التمدن . فان انكيدو ، قبل
اتصاله بالمرأة ، أشبه بالوحش : « مولده في التلال
... يأكل العشب مع الظباء ، ويرد الماء مع
الحيوان ، ويفرح له مع حيوان البر عند مسقى

الطوفان البشرية . لكن الطوفان نفسه كان في
صالح الانسان .

انسان كلكامش « صورة كاملة تامة » . لا
ثنائية ولا ازدواجية ، بل توازن كياني ووجداني
عظيم .

لا فرق بين الرجل والمرأة في ملحمة كلكامش .
ورغم العقلية السائدة في جميع الحضارات والعهود
الواقفة الى جانب الرجل ، فان البطلين كلكامش
وانكيدو ليا رجلين للاتقاص من قيمة المرأة .
ففي مصاف الالهة تحتل الاناث ادوارا رئيسة :
(ارورو) هي خالقة كلكامش ، (نسون) امه ،
وعشتار ربة عظيمة .

ودور المرأة من الناحية البيولوجية والجنسية
واضحة تماما . وتقترب الالهات في ذلك من البشر ،
لذا نرى عشتار تنادي كلكامش قائلة :

الالهة ، ودور البشر تجاه صفار الالهة ، كما
اسلفنا .

لا نعرف شيئا عن الحب في ملحمة كلكامش
الا من خلال زاوية ضيقة محصورة في حوار
كلكامش وعشتار . فتقول عشتار :

« تعال يا كلكامش وكن عريسي الذي اخترت
امنحي ثمرتك أتمتع بها

ستكون انت زوجي واكون انا زوجك
ساعد لك مركبات من حجر الالازورد
والذهب

عجلاتها من الذهب وقرونها من البرونز
وستربط لجرها (شياطين الساعة) بدلا من
البغال الضخمة

وفي بيتنا ستجد شذى الارز يعبق فيه اذا ما
دخلته

الماء » ، لكنه عندما يتصل بها ، ويتعلم منها فن
المرأة ، يجذب اليها ويتعلق بها . تخونه قوته
الجسدية عما قبل ، لكنه يفتدو « فطنا ، واسع
الحس والفهم » . وتغاطبه المرأة قائلة : « صرت
تحوز على الحكمة يا انكيديو ، واصبحت مثل
الهة ! » .

الانسان الفرد متوحش ، والانسان الاجتماعي
حكيم ، واجتماعية المرأة الطبيعية في وحدة الرجل
والمرأة وتعاونهما على خلق مجتمع بشري متمدن .
لذا تاخذ المرأة انكيديو الى (اوروك) ، حيث
الحضارة والاسواق والبيت المقدس ، فيترك
« المتوحش » غابته الى الابد . وتلبس المرأة
الرجل شقا من ثيابها ، وتعلمه كيف يؤكل الخبز
ويشرب الشراب وينظف جسده ويسحه بالزيت ،
لكي يفتدو انانا . وهي بذلك انما تؤدي دور

« أي خير سأنا له لو أخذتك ؟
 انت ا ما انت الا الموقد الذي تخذ ناره في
 اليد
 انت كالباب الخلفي لا يحفظ من ربح ولا
 عاصفة

انت قصر يتحطم في داخله الابطال
 انت فيل يمزق رحله
 انت قبر يلوث من يحمله
 انت قرية تبلل حاملها
 انت حجر مرمر ينهار جداره
 انت حجر (يشب) يستقدم العدو وينغريه
 وانت نعل يقرص قدم متعله
 أي من عشاقك من أحبته على الدوام ؟
 وأي من رعاتك من أرضاك دائما ؟ ... »
 واذا تشكو عشتار كلكامش الى ابيها (آنو)
 لانه عدد مثالبها وفحشاءها ، يجيبها ابوها بانها

اذا ما دخلت بيتنا فستقبل قدميك العتبة
 والدكة

سينحني خضوعا لك الملوك والحكام
 والامراء

وسيقدمون لك الاتاوة من تاج الجبل
 والسهل

وستلد عزاتك (ثلاثا ثلاثا) وتلد فعاك
 التوائم

وحيرك ستفوق البغال في الحمل
 وسيكون لخيول مركباتك الصيت المعلن في
 السبق

وثورك لن يكون له مثيل وهو في نيره
 وبالرغم من كل هذا الاطراء يرفض كلكامش
 مطلب عشتار ، لان كلامها صادر عن عاطفة
 مشبوبة ، لا عن حب حقيقي ، فهي اللعوب المتقلبة ،
 فيجيبها بقوله :

ويرتفع الحب في جملة نصوص الى ابعاد
انسانية رفيعة ، كما في تعبير الالهة (نسون) اذ
تتخذ انكيديو ولدا لها مع انه ليس من رجمها ،
وفي الصداقة المثينة التي تربط بين قلبي كلكامش
وانكيديو فيغدوان صاحبين وخليين متعاونين في
السراء والضراء .

وكما يتعد الادب العراقي القديم بصورة
عامة ، وملحة كلكامش بصورة خاصة ، عن
امتهان الجسد والجنس ، كذلك نراه يتجنب اعتبار
الجسد شيئا منحطا ، انما لجسد الانسان منزلة
عالية واعضاؤه كريمة . فالالهة نسون ترتدي حلة
لائقة ، وتزين بحلى تناسب صدرها ، وتضع على
رأسها تاجا . والتدن يقتضي النظافة والزينة ،
لذا ينظف انكيديو شعره ، ويسح جسده بالزيت ،
ويلبس اللباس فيصير كالعريس . ويفعل كلكامش
شعره الطويل ، ويرسل جنائيل شعره على كفيه ،

هي التي تحرشت به فجنحت ثمرة عملها . وجلي من
هذا النص بان كلكامش يرفض الابتذال والعهر ،
الامر الذي يحملنا على فهم النص الاخر بمعنى
اظهار قوته عندما لا يترك عذراء لحبيها . . .

وتقييم الجنس في ملحمة كلكامش باد للعيان ،
فمشتار تطلب من كلكامش ان يمنحها ثمرته لتتمتع
بها ، وتطلب من حبيها (ايشولنو) ان يدعها تتمتع
برجولته ، وان يد يدعه ويلبس مفاتن جسدها .
اما البغي فتكشف عن نهديها امام انكيديو ، وعن
عورتها ، لكي ينال من مفاتن جسدها ، فتراوده
وتبعث فيه الهيام ، فينجذب اليها ، وتنضو عنها
ثيابها فيقع عليها ، ويتعلم منها وظيفة المرأة وفنها ،
ويتعلق بها ، ويلبث يتصل بها ستة ايام وسبع
ليال ، حتى يشبع من مفاتنها . والزوجة التي بين
احضان زوجها يغمر قلبها الفرح ، بينما المنزل
المهيا جيدا يخلق جوا دافئا للمحبين .

صراع مستديم » ، وفق دياكتية الحياة ، وذلك لكي تنال اوروك « السلام والراحة » . وينتهي الصراع الحاد بين البطلين الى تعارف وتحاب ، فتتشا بينهما اواصر صداقة متينة ما تلبث ان تلد تعاوناً وثيقاً وملازمة دائمة لا يقطع جلها سوى الموت ، بل وتستمد عبر الموت ايضاً .

الانسان المنفر اشبه شيء بالوحوش ، بينما تعرفه على بني جنسه يصيره انساناً ، وتتيح الحياة الاجتماعية للبطلين ان يعملوا معاً على ازالة الشر من الارض ، فيقتحمان السبل المدودة ، ويجتازان غابة الارز الموحشة ، ولا يحجمان عن اقتحام الصعاب . « سيحي احدنا الآخر » ، يخاطب كلكاش صديقه انكيلو ، « واذا ما سقطنا في النزال ، فنخلف من بعدنا اسماً خالداً » . وللقضاء على المفريت ، رمز الشر ، يقتسمان العمل بينهما . وعندما يرقد انكيلو طريح الفراش ،

ويخلع لباسه الوسخ ويكتسي حللاً نظيفة ، ويرتدي حلة مزركشة يربطها بزئار ، فتراه عشتار وتشاقه زوجاً نظراً لجماله . جمال الجسد وزينته وظافته في هذا العالم من الضرورة بمكان ، اما في العالم السفلي فعلى عشتار ان تخلع ثيابها وزينتها وتخلو عن الجمال ، كما تسب في ذلك مأساة (نزول انا - عشتار الى العالم السفلي) .

لا قيمة للانسان الوحيد ، في ملحمة كلكاش ، لان الانسان الاكمل هو الاجتماعي والصديق والمتعاون مع غيره في سبيل دفع الاذى عن الآخرين وتحقيق السعادة للجميع .

لم يكن بوسع البشر ان يحلموا بشخصية اعظم واكمل من شخصية كلكاش ، سواء في الحكمة أم بالقوة أم بالجمال ، ومع ذلك لم تنقطع مظلالمه ليل نهار ، لذا نرى الالهة تخلق غريباً له « يضارعه في قوة اللب والعزم » لكي يكونا « في

النزال خير من الموت في الفراش ا . يناضل ابدا ، ولا يهدأ الا في الكشف عن لغز الحياة والموت ، ويتساءل باستمرار عن طريق النجاة فيقول :

« أين الطريق ... أين الاتجاه اليه ؟

دلني على الطريق اليه

فاذا استطعت الوصول اليه فحتى البحار

ساعبرها ا

واذا تعذر بلوغ مرادي فأظل أجول في

الصحارى ا .

وانسان كلكامش يتجسد في البطلين :

كلكامش وانكيديو .

انكيديو انسان بدائي متوحش ، لكنه يحصل

عمق الصحراء وابعادها ، لذا نراه يقدو انسانا

متمدنا ، ويتعاون مع كلكامش على ازالة كل شر

من وجه الارض . وكلكامش اسطورة انسان

تنهر الدموع من عيني كلكامش ، ويتالم جدا ، لانه لا يرى « صاحبه العزيز » ، فانكيديو صاحبه وخله الذي « أحبه حبا جما » . ويحاول كلكامش القيام بالمستحيل في سبيل انقاذ صديقه وارجاع الحياة اليه ، فيعبر الجبال ، ويقطع البحر ، للحصول على نبات الحياة الجديدة . ولا يفعل ذلك لصالح انكيديو وحده ، وانما ليشرك بالحياة جميع الناس .

وخلاصة القول ان انسان كلكامش كامل الحكمة والبطولة والجمال . انه اجتماعي ذو اساس راسخ متين من الصداقة والتعاون ، متعلق بارضه ووطنه وشعبه ، يبذل الكثير في سبيل اسعاد الآخرين ، ضعيف ازاء الموت ، ولكنه يرفض مصير البشرية : « ان يصير ترابا » ، وان يضطجع فلا يقوم ، ولا يرضى ان تستأثر الالهة وحدها بالحياة والخلود لنفسها ، لذا نراه يعمل جهده على مقاومة الشر ، بشجاعة وجلد ، وشعاره : « الموت في

الانسان هلف وقمة

بوسعنا الاستفادة في تشخيص ملامح اخرى
لإنسان الرافدين ، لكننا نكتفي بهذا القدر ،
آملين اننا رسعنا لوحة لا بأس باكتمالها . وناتي
الآن على تلخيص أهم المعطيات والافكار والابعاد.

ينبغي اعتبار عالم الالهة - في أدب وادي
الرافدين - قريبا جدا من عالم البشر ، وكأنه
عالم اناني اكثر منه غيبيا او سحريا ، لانه
انعكاس لتصورات إنسان وادي الرافدين عن
ذاته ، مع شيء من التخميم والتسامي ، الامر الذي
يكشف لنا عن تطلعاته وطموحه ، لاسيما من حيث
الحيل والحكمة والخلود . وقد رأينا صغار الآلهة
يتعلمون من البشر كيف ياكلون ويلبسون

حكيم وملك بطل ، يخرج من اكتفائه وعالمه
التحضر الى خضم بحر الحياة ومتاهات غابتها ،
ويستد ، بمعية صديقه وشعبه ، من نصر الى نصر ،
حتى يصطدم بالمستحيل ، الموت ، من دون ان
يتراجع ، فيقارع كل ما يحول دون اكتمال أنسته ،
وقربه « ملأى بالماء النقي على السدوم » وقلبه
مضطرب لا يستقر حتى يحل نبات الحياة الى
مدينته ويشرك به جميع الناس .

إنسان (ملحمة كلكاش) عظيم الاتزان في
تكوينه وواقعه ، عظيم وعبقري ، بل نموذج يحق
لكل الناس ، في كل زمان ومكان ، أن يحتذوا به .

قيمة المرأة ومنزلتها في المجتمع العراقي القديم ،
والمثال سومري في مدح (انا) رمز المرأة المثالية
العظيمة :

« سيدة جميع النواميس الالهية ، الفياء
اللامع

المرأة التقية التي تتلح بالاجلال ، محبوبة
الارض والساء

كاهنة الاله (آنو) ، بكل الحلى العظيمة
صاحبة التاج الفتان اللائق بالمركز الكهنوتي
الرفيع

التي نالت يداها النواميس السبعة كلها
يا سيدتي ، انت حارسة النواميس الالهية
العظيمة كلها ...

يا صاحبة المقام الاول ...
انت التي منحها الاله (آنو) النواميس

ويمشون ، فهم أشبه بالانسان المتوحش الذي
يغدو « متمدنا » . ويجري تصعيد في الافكار
والمفاهيم ، فرى الانسان يقوى على البقاء رغم
ارادة الآلهة ، كما في الطوفان ، او يتحدى المحتوم ،
كما في الانسان - كلكامش .

ولا يحق لنا ان نبالغ في الفروق بين فرد
وفرد ، وفئة وفئة ، وجنس وجنس ، وحالة وحالة
في المجتمع العراقي القديم . وكلما توغلنا في القدم ،
كلما ضعفت هذه الفروق ، وتلمسنا أصالة
انسانية رفيعة تتعد عن التشويشات التي لحقت
بالمجتمعات البشرية في العصور التي تلتها .
يكفيانا عن ذلك شواهد ثلاث : دور المرأة ومنزلتها ،
تواضع الحاكمين وحرصهم على تحقيق العدالة
والخير ، وتقييم العمل واعتماده في العمران .
وهذا كله قبل نيف واربعة آلاف سنة .

نذكر هنا مثالا اضافيا نتشف من خلاله

خليقة الرحم المقدس ، أسمى من الام التي
ولدتك .

العالمة الحكيمة ، سيدة جميع الارضين
يا رازقة الجماهير ، ها انا انشد أغنيتك
المقدسة

ايتها الالهة معطية الحياة ، يا صاحبة
النواميس

انه لفخر ان ينادى باسمك
ايتها الرحوم ، ايتها المرأة الصالحة
الماتقة ... »

وبشان الشاهد الثاني لنقرأ من جديد
مقدمة شريعة حمورابي حيث « الامير التقى الذي
يخشى الهته » يريد ان يوطد « العدالة في البلاد »
ويقضي على « الخبيث والشر » لكي لا يستعبد
القوي الضعيف ، ولكي يعلو العدل كالشمس
فوق ذوي الرؤوس السود (أي الظافرين) ، ولكي

الملكة التي تمتطي ظهر البهائم
وتقدر القرارات بموجب اوامر الاله آنو
المقدسة

يا صاحبة كل الشعائر العظيمة ...
يا مخربة البلدان الاجنية ...
وفي خضم المعركة كل شيء يتحطم امامك ..
من يستطيع ان يهدى قلبك التأثر ؟ ...
السيدة التي ترخي العنان
السيدة التي تفرح القلوب ...
السيدة المعظمة في الارض
في المدينة التي تعلن الولاء لك ، تكون
الارض لك ...

ايتها السيدة التي تسمو على آنو ، من ينكر
الولاء اليك ؟

انت يا صاحبة النواميس الالهية ، يا ملكة
الملكات العظيمة

وتنازع البقاء ، ومنشد لاولى قصائد الحب
واترائيم والصلوات ، ومشيد اولى المدارس
والمكتبات . وهو اول من استخدم الفضة والذهب
للبيع والشراء والزينة ، واخترع طرق التجميل
والتزويق ، وأبدع اولى المنحوتات والزخارف ،
وسكن اولى الدور الطينية والحجرية ، وشيد
اول الهياكل العظيمة واجعل الزقورات في العالم
وفق هندسة ذات اساس رياضي محكم .

هذه وغيرها من ابتكارات تجعلنا أن نقرر
خاشعين بعظمة انسان وادي الرافدين ، في اقدم
عصور التاريخ ، معترفين له بالفضل الاكبر في
ارساء قاعدة حضارية للمدينة ، ليس لها مثيل في
تاريخ كل الشعوب والبلدان الاخرى . وأهم ارث
حضاري ما حمله الانسان العراقي قديما من فكر
ومفاهيم وقيم ، عن ذاته ، وعن الكون ، وقد
أفضنا فيه .

ينير البلاد من أجل خير البشر » . والملك قدير ،
بطل ، ملك الملوك ، حامي البلاد ، وهو في الوقت
عينه مطيع وتقي ومتأمل ورزين ومتكامل وامير
ورع وراعي الرعية ، بل وأشبه « بالاب الحقيقي
للشعب ، الذي مكن البلاد ان تنال القيادة الرشيدة
والحكومة الحسنة » ...

ولنستعد بشأن الشاهد الثالث ما جاء من
تقييم للعمل في قصيدة (الفاس) ، بها تبني الدار
والمدن ، فيتحقق الازدهار .

ويطول بنا المجال لو اردنا تلخيص جميع
المنجزات الحضارية التي قام بها انسان وادي
الرافدين منذ اقدم العصور . فهو مؤسس اولى
الدول والامبراطوريات ، ومبتكر اول نظام للري
والزراعة ، ومشروع لاول القوانين والاقلمة ،
ومخترع لبدايات الكتابة واولى قصص الخلق
والطوفان واساطير العالم السفلي وملاحم العظمة

كان يغيز مع الخبازين ، ويصنع الخبز مع
خبازي اريدو

كان يجهز الخبز والماء الى اريدو في كل يوم
ويعد ، يديه التنظيفين ، مائدة الترابين
وبدونه لا تنظف المائدة

يقود السفينة ، ويضطلع بصيد الاسماك
لاريدو ... »

ستظل البشرية مدينة لانسان وادي الرافدين
وحضارته ، ومنظّل نفترف من اصالة الفكر النير
الذي كان لهذا الانسان ونكتشف عبقا وابعدا
انسانية واقعية وسامية تساعدنا على بيان الذات
والمجتمع بنيانا متونا متكاملا ، لان الانسان هو
ابنا هدف وقمة .

وخير ما نختم به بحثنا هذا اسطورة (ادايا)
الاكديّة ، وهي من حدود القرن الرابع عشر قبل
الميلاد ، وفيها وصف للانسان المتحلي بالفهم
والحكمة والقدرة .

« كان امره نافذا ... »

جعله كاملا بالفهم العميق ليعرف خطط البلاد
واسرارها

لقد منح الحكمة ، ولكن لم يمنح الخلود
في تلك الايام ، في تلك السنين
خلق الاله (آيا) حكيم (اريدو)
وجعله نموذجا للبشر

الحكيم — الذي لا يوجد من يستطيع رد
أمره —

القادر ، المدرك ، العظيم بين الانوناكي هو ،
الطاهر ، التنظيف الالهي ، الكاهن المشافي ،
المشرف على الشعائر

- ٨ - فاضل عبدالواحد علي ، عشتار وماساة
تموز ، منشورات وزارة الاعلام ، بغداد
١٩٧٢ .
- ٩ - نفس المؤلف ، الطوفان ، بغداد ١٩٧٥ .
- ١٠ - فوزي رشيد ، الشرائع العراقية القديمة ،
منشورات وزارة الاعلام ، بغداد ١٩٧٢ .
- ١١ - ليونارد وولي ، وادي الرافدين مهد
الحضارة تعريب احمد عبدالباقى ، مكتبة
الثنى ، بغداد .
- ١٢ - هنرى فرانكفورت فجر الحضارة في الشرق
الادنى ، ترجمة ميخائيل خوري ، بيروت .
- ١٣ - جماعة من علماء الانار السوفيت ، العراق
القديم ، ترجمة سليم طه التكريتي ، بغداد
١٩٧٦ .
- ١٤ - عامر سليمان ، القانون في العراق القديم ،
المؤصل ١٩٧٧ .
- ١٥ - ثلما ستيان عقراوي ، المرأة : دورها ومكانتها
في حضارة وادي الرافدين ، بغداد ١٩٧٨ .
- ١٦ - احمد سوسة ، حضارة العرب ومراحل
تطورها عبر العصور ، بغداد ١٩٧٩ .

المصادر والمراجع

- ١ - صموئيل نوح كيريم ، من الواح سومر
ترجمة طه باقر ، القاهرة ١٩٥٨ .
- ٢ - نفس المؤلف ، الاساطير السومرية ، ترجمة
يوسف داود عبدالقادر ، بغداد ١٩٧١ .
- ٣ - طه باقر ، مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة
بغداد ١٩٧٢ .
- ٤ - نفس المؤلف ، ملحمة لكلامش ، منشورات
وزارة الاعلام ، بغداد ١٩٧٢ .
- ٥ - انيس فريجه ، اساطير من الادب السامي ،
بيروت ١٩٦٧ .
- ٦ - دياكونوف - ترافيموف ، جماليات ملحمة
لكلامش ، ترجمة عزيز حداد ، بغداد ١٩٧٢ .
- ٧ - عبدالحق فاضل ، هو الذي رأى ، ملحمة
تلقيش ، بيروت ١٩٧٢ .

- Leonard Wooley, The Sumerians, New York 1965 -٢٧
 Idem, Ur of the Chaldees, New York 1965 -٢٨
 G. Roux, Ancient Iraq, London 1964 -٢٩
 H.W.F. Saggs, The Greatness that was Babylon, London 1966 -٣٠
 Idem, Everyday Life in Babylonia and Assyria, New York 1967 -٣١

- ١٧- نائل حنون ، عقائد ما بعد الموت في حضارة بلاد وادي الرافدين القديمة ، بغداد ١٩٧٨ .
 ١٨- أندريه بارو ، سومر ، ترجمة عيسى سلمان وسليم طه التكريتي ، بغداد ١٩٧٩ .
 ١٩- محاور في الفكر والتاريخ ، باشراف حميد الطبعي ، بغداد ١٩٧٩ .
 ٢٠- Ancient New Eastern Texts, ed. by James B. Pritchard, 3 ed. with Suppl., Princeton 1969
 ٢١- W.G. Lambert, Babylonian Wisdom Literature, Oxford 1960
 ٢٢- L. Oppenheim, Ancient Mesopotamia, Chicago 1964
 ٢٣- Marguerite Rutten, La Science des Chaldéens, Paris 1960
 ٢٤- Idem, Babylone, Paris 1966
 ٢٥- G.R. Driver, The Assyrian Laws, Oxford 1935
 ٢٦- Idem, The Babylonian Laws, I & II, Oxford 1951 & 1968

Petty Encyclopedia
A Fortnightly Cultural
Series dealing with various
branches of Science, Art,
and Literature
Issued by Dar — Al-Jahidh
Al-Khulafā Street — Baghdad

Editor-in-Chief
Musa Kraidi

المحتويات

٣	فجر فكر اصيل
٨	نظرة انسانية متونة
١٤	اصل الانسان والكون
٢٢	الانسان والمعمران
٢٧	الانسان والارض
٤٥	الانسان والمجتمع
٥٥	اقدم الشرائع
٧٢	المرأة
٨٥	انسان لكلامش
١٠٩	الانسان هدف وقيمة
١١٨	المصادر والمراجع

رقم الابداع في المكتبة الوطنية — بغداد

(١٥٢٥) لسنة ١٩٨٠

دار الحرية للطباعة — بغداد

١٤٠١ هـ — ١٩٨٠ م

